بسم الله الرحمن الرحيم

١

قُتل عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — عام أربع وعشرين من الهجرة ، بعد أن وَلى أمرَ المسلمين عشر سنين وأشهرا ، فكان قَتْله وأدا للحكم الجمهوري الشورى الذى ملأ الدينُ به نفسَه ، ولم يَستوحشه طبعُه ؛ فلقد آمن إيمان الرائى المتدبِّر الحر ، فخلا عقلُه للإسلام يتدبّره ، وصَفت نفسُه له لا يغلبها عليه هوى ، وعاش له يرجو أن يُطبِّقه كما أريد به ، نظاماً لخير المسلمين أمةً لا لخير فريق دون آخر .

ولم يدخل عمر الإسلامَ باسم قبيلته وأوزارها فى الجاهلية ، وإنما دخله باسم الناس جميعا ، من أسلم من العرب ومِن غيرهم ، ومن سيُسلم من العرب ومن غيرهم ، فلم يحابِ ولم يجامل ، وقسا على أهله قبل أن يقسو على من ليسوا له بأهل .

ولقد اختُطف — رضى الله عنه — وأخشى ما كان يخشاه أن يرتدّ الحكم جاهليّا قبليّا تعلو فيه كلمةُ السادة ، وتختفى

فيه كلمة الشعب ، وكأنه كان يحسها لاذعة وهو على فراش الموت ، حين جمع إليه النفر الذين مات رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — وهو عنهم راضٍ ، يوصيهم ، وهو يقول :

« أنشدك اللهَ يا علي ، إن وليت من أمور الناس شيئا أن تجعل بني هاشم على رقاب الناس !

أنشدك الله يا عثمان ، إن وليت من أمور الناس شيئاً أن تحمل بني أبي مُعيط على رقاب الناس !

أنشدك الله يا سعد، إن وليت من أمور الناس شيئا أن تحمل أقاربك على رقاب الناس !

قوموا فتشاوروا ».

ولم تكن عشر سنين حكمها عُمر ، إلى سنتين قبلها وليها أبو بكر ، إلى أربع وعشرين عاما عاشها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بين العرب داعياً وموجهاً ؛ لم تكن هذه السنون الست والثلاثون كافيـــة بأن تنزع من قلوب السادةِ السيادةَ الجاهلية الغاشمة المستبدة ، وإن انتزعت غيرها من إثم الجاهلية ؛ ولا أن تنتزع من قلوب الشعب المَسُود الرهبة الصماء والطاعة

العَمياء ، وإن كادت لتبلغ — حين هَبَّ إلى عمر عربى مِن العامة — وهو يَرهب عمرَ فى الحق ولا يرهبه على الباطل ، ولا تمنعه طاعته له أميرا على الأُمة أن يحاسبه فرداً عن هذه الأمة ، فيقول له : والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بحد السيوف .

فلا يغضب لها عمر ، وإن بدت قاسية ؛ فلمثلها جاء الإسلام ، ولمثلها عَمل عمر ».

وما كان قَتْل عمر فى فتنة من تلك الفتن التى ثارت بين المُسلمين بعدُ ، وقَتل المسلمون فيها بعضهم بعضا ؛ من أجل ذلك مَر قتلُه — رضى الله عنه — على خطره دون أن يُثير فتنة ؛ لأنه لم تُهيأ له فتنة ، ومن أجل ذلك اطمأنت نفس عُمر وهو يُودع دنيا المُسلمين للمسلمين نقية من الخلف بينهم أو الخلاف عليه ، فما هى بالهيّنة على الأمم أن يمضى الحاكم مقتولا ، وما هى بالهينة على نفس الحاكم أن يرى النفوس التى حكمها ليُرضيها قد أثارتها ولايته عليهم سُخطا عليه ؛ لهذا أمر عُمر ابنه عبد الله قلقاً أن يخرج فينظر مَنْ قتله ؛ ولهذا استمع عمر

إلى عبدالله مطمئنا حين أنهى إليه أن قاتله هو « أبو لؤلؤة المجوسى » غلام المغيرة بن شُعبة ، ولهذا نسى عمر حرّ الجُرح فى جسمه وقال : « الحمد لله الذى لم يجعل منيّتى بيد رجل سجد لله سجدة واحدة » . ثم التفتَ مشغولا برعيته التى شغلته حيًّا يريد أن يؤدّى لها ما عليه، قبل أن يفصل الموت بينه وبينها ، شأنَ الراعى الأمين الذى يعلم أن حياته كلها منذ أن يلى إلى أن يموت لتلك الأمة التى تولّته ليس له منها شىء ؛ لذلك لم يشأ عمر أن يختص نفسه منها بشىء حتى هذا الرّمق الباقى له . لم يُعط منه جسمه حقا ، ولم يعط منه أهله حقا ، بل زحمه بما لم تتسع له الساعات الطوال ينظر فى أمور رعيته . وأرسل ابنه عبد الله يدعو إليه هؤلاء النفر الذين مات عنهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو عنهم راضٍ يُوصيهم .

ولكن القاتل — على مجوسيته — كان رعية يرعاه عمر مع من يرعى من المسلمين ، له مثلُهم من عدله وإنصافه ، وعلى عمر وأمثال عمر أن تفزع نفوسهم حين يثور هذا ، كما تثور نفوسهم حين يفزع المسلمون ، وإن اختلف معنى الفَزْعتين ،

فأولاهما فزعة تُسىء إلى الحاكم فى عدله العام ، وثانيتهما تسىء إليه فى عدله الخاص .

وما نظن عمر أهمل عدله العام بعَدْله الخاص ، ولا نسى إنسانيته المجردة بإنسانيته المقيدة ، ولكن وراء أبى لؤلؤة شيئا لا يقوى عليه عمر إلاّ إذا تجرد عن رسالته التى كانت امتدادا لرسالة الرسول ، ثم امتداداً لحكم أبى بكر . فما نظن أبا لؤلؤة حقد على عمر أنه لم يَحطّ عنه درهمين كانا عليه لمولاه المغيرة ، وكان هو صَناعَ اليد يحترف النّجارة والحدادة فى بيئة يُعوزها النجّار والحدّاد .

ولكنا نؤمن أن أبا لؤلؤة كان يحقد على عمر إيغاله فى فارس وغير فارس من الأقطار غير المسلمة ، وكان يحقد عليه تلك الضحايا التى استكبرت وأبت على عمر أن تشيع كلمة الله ، وما يدرينا : هل من بين تلك الضحايا من كان أهلا لأبى لؤلؤة ؟ وإن لم يكن فلقد عدّهم جميعا آله ، وإنّ بقاء أبى لؤلؤة حيث هو مجوسيّا لم يتحول عن مجوسيته ليس بعيداً عن المسلمين ، ولكن قريبا منهم يُساكنهم ويعاملهم ، دليل على نفس الرجل وما تحمل من حقد ، لا لدرهمين لا يقيمان

الأوَد ، ولكن لعقيدة وُتِرفيها ورأى الواتر له عمر .

ولكنى على هذه لا أريد أن أنفى هذا السبب الهين الذى يذكره المؤرخون ، وأنا إن ذكرته أريد أن أحمّل المغيرة ابن شعبة شيئاً من التبعة فيه .

فلقد عوّدنا عمر فى الكثير مما يتصل بالمغيرة أن يكون به رحيما شيئا ما ، رحمةً لا تُضار المسلمين ولا تُضار حقوق الإسلام ، ولكن رحمة خشى إن لم يفعلها أن يضار حُراً هاجر فى سبيل الله . وكان هذا المعنى كبيراً فى نفس عمر ، يعظمه ويجاهد أن يحفظه بسياج من الإكبار .

من أجل هذا وقف عمر من المغيرة حين شهد عليه أبو بكرة وأخواه : نافع وزياد ، وشبل بن معبد . بالزنى .

ولقد اضطربت لها نفس عمر حين شهد على المغيرة ثلاثة منهم شهادة توجب عليه الحد ، ويتقدّم رابعهم «زياد» على عمر ، ويراه عمر مقبلاً ، ويتمنى عمر لو جاءت شهادة زياد غير قاطعة ، ويتحرك لسانه بأمنيته فيقول : «إنى لأرى رجلا لن يخزى الله على لسانه رجلا من المهاجرين» ، وتمضى شهادة زياد بما تمنّى

عمر ، وفى يقينه أن المغيرة غير برىء ، ولكنها جريرة لا تقول فيها النفوس بما تؤمن ، ولكن تقول فيهـــا الشهادات بما يرى أصحابها فى جلاء ووضوح .

ويقيم عمر الحد على الشهود الثلاثة ، ويفرح لها المغيرة وينظر شامتا بالشهود وهو يقول : الحمد الله الذى أخزاكم ! وهنا يملى يقين عمر على لسانه : اسكت أخزى الله مكاناً رآك .

ويمسكها على بن أبى طالب على مضض - وكان حاضرها - ، إلا أنه لا يملك أن يحمل زياداً على أن يصرح بأكثر مما صرح . ويرى أن هناك حداً قد وجب هان فيه زياد ، ولم يشتد فيه عمر ، رفقاً بمهاجر من المهاجرين ، ويخرج منها « علىّ » بنفس كاظمة ، ويخرج منها عمر بنفس راضية مطمئنة .

ويُضرب أبو بكرة فلا يثنيه ما نال عن أن يعود فيشهد أن المغيرة فعل ، ويكاد يخرج عمر عن اطمئنانه ورفقه ، ويهم بضرب أبى بكرة ، فلا يقوى « علىّ » على كظمه ، ويوعد برجم المغيرة إن ضرب عمر أبا بكرة ؛ فيكف عمر .

تلك واحدة تدُلك على رفق عُمر بالمغيرة ...

وثَم ثانية تدُلك على استغلال المغيرة هذا الرفق والمُباهاة به فى حق وغير حق .

يحكون عنه أنه قال : أنا أول من رشا فى الإسلام : جئت إلى « يَرفأ » حاجبِ عمر وكنت أجالسه ، فقلت له : خُذ هذه العمامة فالبسها فإنّ عندى أختها . فكان يأنس بى ويأذن لى أن أجلس من داخل الباب ، فكنت آتى فأجلس فى القائلة فيمر المارُّ فيقول : إن للمغيرة عند عمر منزلة ، إنه ليدخل عليه فى ساعة لا يدخل فيها أحد .

فعلى مثل الأولى وعلى مثل الثانية عاش المُغيرة بين المسلمين خلافةَ عمر ، يُدِل على مَن لاحول له إدلالاً تختلف درجته فى نفوس هؤلاء المُستضعفين ، وكان أبو لؤلؤة أحدهم ، شكاه إلى عمر وفى نفسه ما فى نفوس أمثاله من عمـــر لتَقريبه المغيرة هذه القُربى الموهومة ؛ فلما لم ينل مايريد من عمر تأكد عنده ماوهم ، واستيقظت فى نفسه تلك البواعث الأولى ، فأحيـــا شرَّشراً ؛ وقتل عمر ، وكان المدبِّر له المغيرة ، إن صح أن نُسمى هذا تدبيراً .

وإن في عدول أبي لؤلؤة عن المغيرة ـ وهو ظالمه الأول ـ إلى عمر ـ وهو المعين لظالمه ـ كما خال ـ ما يؤكد أن السبب الحق في ثورته بعمر هو مجوسيته التي انطوت عليها نفسه واضطربت بها ، حتى إذا ماهاجها ما كان من ظلم المغيرة وخذلان عمر ثار بقتل عمر ، وهو يظن أنه يقتله للثانية ، وما قتله إلا الأولى .

٢

ثم يُقتل عثمان بن عفان — رضى الله عنه — فيكون قتله تمهيداً لأن يعود الأمر أدراجه استبداديا ، كما كان فى جاهليته ، وإن اختلفت الصورة .

وما أصدقها كلمة جرت على لسان ثمامة بن عدى — وكان أمير صنعاء يوم قتل عثمان — اليوم نزعت الخلافة من أمة محمد وصارت ملكا وجبرية ؛ من غلب على شىء أكله .

فلقد غلب الأمويون عثمان على أمره فشغلوه بأنفسهم أقرباء ، وجنحوا به إلى ماخشيه عمر عليه وحذّره منه ؛ وغلبه على أمره سادتُهم الطامعون فى الاستئثار بالأمر بعده يريدون أن يفوتوه على « على » وكانوا يرونه له غيرَ منافَس .

وجاس معاوية يقتطع الأمور دون عثمان ، يصرفها على هواه لتلك الغاية التى ينشدها وهو يقول للناس : « هذا أمر عثمان » . يشجعهم على ذلك ميل كان فى عثمان فطريا إلى صلة ذوى رحمه ، فلقد سمعوه يقول : « إن أبا بكر وعمر كانا يتأوّلان فى هذا المال

ظلم أنفسهما وذوى أرحامهما ، وإنى تأولت فيه صلة رحمى »

وكانت الثورة بعثمان ؛ ثورة شارك فيهـا الشعب مأجورا مسوقا ؛ لم تكن ثورة من صُنعه ، وإنما كانت من صُنع السادة الذين فزعوا بتدبير الأمويين ، سيرّوا لها فلولا من مختلف الولايات تقتحم على هذا الخليفة المظلوم داره ، وتنال منه أشد النّيل .

دخل عليه « علىّ » فى محنته هذه القاسية : لا ليشد أزره ولا ليثبط عنه ؛ ولكن ليقول له : «إنى أحذّرك اللهَ وسطواته ونقماته ، فإن عذابه شديد أليم » .

ويدرك عثمان قسوة « علىّ » به ساعة يرجوه أعطف الناس عليه ، فيقول له : « أما والله لو كنتَ مكانى ما عنفتك ولا أسلمتك ولا عبت عليك » .

وكان « على » يرى أنه صاحب حق أُبعد عنه ثلاث مرات :

الأولى يوم بايع الناس أبا بكر ، فغضب لها ولبث محتجبا مدة ثم بايع .

والثانية يوم أوصى بها أبو بكر لعمر ، فسكت عنهـا

وفى النفس شىء ...

والثالثة يوم ترك «عمرُ» الأمرَ شورى ، وما كان أطمع «على» فى أن يُوصى به «عمرُ» كما أوصى أبو بكر بعمر ، ولا يتركه بين نفر غيره كلهم طامع فيها مناهض له .

وها هو ذا يراها تكون الرابعة ، والساعى إليهـا رجل من وراءِ الصُّفوف ، هو معاوية ، وليست له سابقته ولا فضله ، ويرى «عثمانَ» بتراخيه يمكّن له .

من أجل هـذا أُنسى «على» الرفق بعثمان ومؤازرته فى محنته ، ومن أجل هذا أُنسى «على» ماذ كّر به عثمان : «وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة الذى يُقتل فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة، ويلبس أمورَها عليها ، ويتركها شيعاً لا يبصرون الحق لعلوّ الباطل» .

* * *

والشعب الذى حُرك لتلك الثورة كان متعطشا إلى ثورة ، لأن الباب الذى فتحه عليه الرسول وأبو بكر وعمر — من الحرية والعدل والمساواة — سدّه عليه عثمان غير مختار بإقحام

الأمويين أنفسهم عليه يوجهون الأمور فى غير عدل ولا مساواة، ولم تكن له حرية فى أن يقول أو ينقض ما يفعلون ، ولكن الشعب مع هذا الضيق لم يبلغ أن يدبّر لتلك الثورة ،ولم يبلغ أن يكون تدبيره على هذه الصورة المؤلمة التى انتهت بقتل عثمان ؛ فلقد كانوا حين اجتمعوا بالمدينة لا يبلغون الألف .من المصريين ستمائة ، ومن الكوفيين مائتان،ومن البصريين مائة . وكان فضهم ونقض أمرهم عليهم — إن كان لهم أمر جد مبرم — شيئا يسيراً على أهل المدينة وذوى الرأى فيها لو أرادوه . وصدق أبو جعفر القارىء حين قال : «ولعمرى لوقام بعضهم فحثا فى وجوههم التراب لانصرفوا خاسرين» .

ولكن المدبرين للأمر استطاعوا أن يجمعوا الثائرين من شتى الأقاليم لجهاد عثمان ، ثم تركوا لهذه الجموع الحبل على الغارب تموج فى الفتنة كما تشاء ، ولو أن هؤلاء المدبرين للثورة دبروا لغيرها ، واجتمعوا على رأى لانتهوا بعثمان إليه فى يسر ، ولسلم عثمان من القتل ، وسلمت الأمة من تلك الفتنة الهوجاء ؛ ولكنهم تركوا عثمان يواجه تلك الجموع

المتألبة بمنطقه ، ولقد كاد يردها عنه حين قال لهم : « والله ما قصرت عن بلوغ ما بلغ من كان قبلي ، ولم تكونوا تختلفون عليه » ، لأنهم — كما قلت — لم يثوروا عن رأيهم وتدبيرهم ، ولما كانت ثورتهم عن رأى غيرهم ، ولولا مروان بن الحكم — حين انبرى للناس بعد عثمان يقول : « إن شئتم حكمنا والله ما بيننا وبينكم السيف » — لا نقضت الفتنة فى مهدها وعاد عثمان معافى وكأن شيئا لم يكن .

ولكن الشعب الذى سكن لكلام عثمان هاج لكلام مروان ، سكن لكلام عثمان لأنه ، لم يجتمع له رأى فى الغضب عليه ، فأرضاه منه هذا القليل فاطمأن ؛ ثم هاج لكلام مروان ، لأنه حرك فيه هذا القليل الذى أثاره على عثمان فمضى فى ثورته أقسى ما يكون ، ولم يجد غير عثمان يرده إلى سكونه بكلمة مثل كلمته ترد عليه طمأنينته .

وهكذا أصبحت هذه الثورة الملفقة المزيفة ثورةً حقيقية ، وأصبح هؤلاء الشذاذ الذين جاءوا المدينة لا يعرف بعضهم بعضا ، ولم تجمع بينهم من قبل ندوة يدبرون فيها الرأى ،

وإنما استُجلبوا إليها كما يستجلب العَمَلة ؛ أصبحوا بعد أن حلّوا المدينة وواجهوا عثمان وواجههم ، واستفزهم مروان وأثارهم ، تجمع بينهم كلمة ، ولكنها بقيت على الرغم من هذا كله كلمة ينقصها الرأى الناضج الذى يمهد للثورة فى النفوس ، واليقين الراسخ الذى يدفعهم إلى الهدف ؛ لذلك بقوا فى المدينة أربعين يوما فى هيط وميط واضطراب وبلبلة لا يدرون ماذا يفعلون .

وكان المدبرون للأمر من خلفهم هم الآخرون لا يعرفون ماذا يفعلون ، ولا إلى أى هدف يهدفون ، ولكنهم كان يعنيهم أن يدوم هذا الاضطراب ، فلم يحاولوا أن يصرفوا الناس عنه بتدبير يجنح إلى السلم يلزمون به عثمان .

وماأسرع ما تضم الثورات إليها — إن دامت — حثالة القوم ، ينضوون إليها عن حيوانية لاتزال فى فِطَر الناس ، إذا هاجت فيهم غلبتهم على عقولهم وتفكيرهم ؛ ثم عن مطامع دنيوية ينتهزها المغلوب ليصبح غالبا ، والمحروم ليطفىء ظمأ الحرمان .

ولقد أنس الناس بحكمين : حكم أبي بكر ثم حكم عمر ، ذاقوا في ظلهما معنى التحرر من نير قريش الذي حملته عواتقهم في تلك الجاهلية الأولى الطويلة ، لم يملكوا أن يلقوه عنهم حتى كان الإسلام فسوى بين الناس ولم يجعل لسادة الأمس سطوتهم على عباد الله .

واطمأن الناس إلى خلافة أبي بكر ثم خلافة عمر لأنهم رأوا فيهما انتصافا من ماضٍ مظلم لم ينل فيه الحكم إلا قرشي . فلما آل الأمر إلى عثمان قبلوه مؤمنين به منكرين له ، آمنوا به لأنه شيء أملته الشورى — وإن لم تكن شورى كاملة — وآمنوا به ، لأن عثمان وإن كان قرشيا فهو شريكهم في جهاد طويل حمل فيه عبئا كبيرا ، وتنكّروا له لأنه قطع في نفوسهم ذلك الأمل الذي بدأ ، وأطفأ في نفوسهم هذا الرجاء الذي أشرق فيها .

أحسها سعيد بن العاص وهو والٍ بالكوفة حين انتهى إليه وقوع وجوه أهل الكوفة في عثمان ، ولقد سيرهم إلى معاوية في الشام عن أمر عثمان ، وناقشهم معاوية وناقشوه ، فإذا ما تنطوي عليه النفوسُ النقمة على قريش تردهم ولاية عثمان إليها وتثيرهم في نفوسهم .

وكما أغضبت ولاية عثمان غير القرشيين فتنكروا له شيئا ، أغضبت الهاشميين لأنها ستمكن للأمويين وتردهم إلى سيادة غلبهم عليها الهاشميـــون .

ولقد اضطرب هذا المعنى وذاك فى نفوس هؤلاء وهؤلاء دون أن يحسوه أولا ، ثم أحسوه حين طالت بالثورة أيامها وأخذ الثائرون فيها وأعطوا ، فاجتمعوا على أمر آخر أخفوه فى نفوسهم وأعلنوا غيره على ألسنتهم ، وكان هذا الذى أعلنوه يحرك الذى أخفوه ويزيدهم به إيمانا وعليه قوة ، فالتقى الأمران وكان معهما أمر واحد .

* * *

ويبلغ الثوار أن أهل الأمصار المناصرين لعلىّ سائرون إليهم ، ويحس المدبرون للأمر أن شيئا سيقع يقطع على هـــذه الثورة امتدادها ويردهم لم ينالوا شيئـــا ، ويتراءى لهم حقهم المسلوب ، وقد اجتمعوا منه قاب قوسين أو أدنى ، يوشك أن يحال بينهم وبينه إلى غير رجعة : هنا يغلب الطيش العقل ، وتهيب بهم النفس الثائرة : كن عبد الله القاتل ولا تكن عبد الله المقتول .

ولكن عثمان خليفة له السابقة فى الإسلام والفضل على المسلمين ؛ ولم يكن الذى شاع عنه من شر يمحو الذى ثبت له من خير ؛ فيلتف الثائرون ببيته يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى؛ يشتطون فى حصاره ولا يجرءون على اقتحام داره .

ويقتل المدافعون عن عثمان رجلا من الثائرين به — هو : نيار ابن عياض — ويطلب الثائرون من عثمان القاتل فيأبى أن يسلمه إليهم ، وهو يقول : « لم أكن لأقتل رجلا ينصرنى وأنتم تريدون قتلى » . فينقلب إحجام الثائرين إقداما، وتراخيهم عزما ، وإذا باب الدار محرق ، وإذا الثائرون قد التفوا بعثمان . ولكنهم على ذلك كانوا أهيب من أن ينالوا منه أو يسفكوا له دما ، ووقفوا من حوله مبهوتين مأخوذين يريدون أن يهموا به ؛ ولكنهم لا يقوون على ما يريدون .

ولكن من وراء هذه الثورة غير الواعية ثورة أخرى واعية ، فلقد كانت الأولى ثورة للناس يلفهم الهيج فيها بوثاق لا يحلهم منه إلا بطش رادع ، فإذا لم يرزقوه ظلوا على هيجهم ، يحمسهم له أنهم معه ما لكون ومع غيره مملوكون ، وما أعطش

النفوس المملوكة إلى أن تحس أنها مالكة ، والويل المالكين إن هم حركوا المملوكين بالظلم أو العسف إلى أن ينسوا طاعتهم وانقيادهم لهم .

ثم كانت الثانية ثورة ذات مطمع من وراء تلك الثورة غير ذات المطمع ، وكانت هى التى حركت الناس فلبوا النداء ، وهم يخالون أنهم يُصدرون عن كراهية لعثمان ، وما علموا أنهم يُصدرون عن تلك الحرية التى يكبتها النظام وإن بدا عادلا ، فما بالك به وإن بدا جائرا . من أجل ذلك لبثت تلك الثورة متعثرة الخطى لا يملك الثائرون فيها رأيا قاطعا . ويحس الثائرون بعثمان — عن وعى وتدبير — عاقبة تردد الثائرين بعثمان عن غير وعى وتدبير ، ويخشون الزمن إن امتد ، إذ لابد مع امتداده من إحدى اثنتين :

إما أن يفتر الثائرون ويهنوا ، فليس فى ظل الحياة الثائرة استقرار ، وليس للناس حياة مطمئنة يغدون فيها على أنفسهم ويروحون إلا فى ظل هذا الاستقرار ، وما أحوج الناس إلى هذه الحياة المطمئنة ، ثم ما أحوجهم إلى هذا الاستقرار

ليضمنوا تلك الحيـــاة المطمئنة .

وإما أن يدخل على الثـــورة ما يبطش بها ، وقد أحسوا بوادره .

عند هذا برز هؤلاء المستخفون لينـالوا من عثمان بأيديهم ما طمعوا أن ينالوه على أيدى غيرهم ، ولم يكن منهم إلا كل موتور من عثمان : منهم من يرى الخلافة له ؛ ومنهم من انطوت نفسه على إحنة .

ولقد اختلف الشر فى نفوس هؤلاء وهؤلاء ، وإن كان قد ملأ نفوس هؤلاء وهؤلاء ؛ ولكنه حين غلت به نفـــوس الأولين كان خلع عثمان هو كل ما يطمعون فيه ، ولكنه حين غلت به نفوس الآخرين ، كان قتل عثمان هو ما ينشدون .

وفرق بين حقد يثيره المغنم العـــام ، وآخر يثيره المغنم الخاص ، وما سلمت الحياة من الاثنين ، وما سلم الوُلاة الذين يَلون أمر الناس من ضير الاثنين .

وما كان ثائرو البصرة — وهواهم فى طلحة — وما كان ثائرو الكوفة — وهواهم فى الزبير — وما كان ثائرو مصر —

وهواهم فى علـى — ما كان هؤلاء جميعا لينالوا من عثمان ما نيل منه لو لم يكن من ورائهم هؤلاء الذين أغضبهم من عثمان شأن من شئون الحياة ، أمثال : محمد بن أبى حذيفة ، وعمار بن ياسر ، ومحمد بن أبى بكر ، وكعب بن ذى الحبكة ، وعمير بن ضابئ البرجمى .

أما عن محمد بن أبى حذيفة ، فقد كان يتيما فى حجر عثمان ، ثم لما شب سأل عثمان العمل فأباه عليه ، وهو يقول :

لو كنت رضى لاستعملتك . فأسرّها ابن أبى حذيفة فى نفسه ، وأنساه تخلّل عثمان بما لم يملك ، جُودَه بما كان يملك .

وأما عن عمار بن ياسر ، فلقد كان بينه وبين عباس بن عتبة ابن أبى لهب يوماً كلام ضربهما عليه عثمان ، لم يضرب عمارا دون عتبة ، ولم يضرب عتبة دون عمار ، لأنه رأى كلا منهما قد قذف صاحبه قَذفاً يوجب الضرب .

وأما عن محمد بن أبى بكر ، فلقد كان إلى طمعه فى الخلافة يحمل فى نفسه لعثمان شيئا ، وذلك حين لزمه حق فأخذه عثمان من ظهره .

وأما عن كعب بن ذى الحبكة النهدى ، فكان يلعب بالنّيرنجات — وهى شىء كالسحر — فبلغ عثمانَ ، فكتب إلى الوليد أن يُوجعه ضربا .

وأما عن عمير بن ضابىء ، فإنه عاش يذكر لعثمان تعزيره لأبيه وحبسه له حتى مات فى السجن ، ولم يذكر أن عثمان لم يفعلها بأبيه كيداً ، وإنما فعلها إنصافا لقوم من الأنصار اغتصبهم ضابىء كلبا ، ثم هجاهم .

فهؤلاء وأمثالهم كانوا أجرأ على عثمان ، وهؤلاء وأمثالهم هم الذين هوّنوا على الناس قتل عثمان .

وهكذا اجتمعت على عثمان فتن ثلاث :

فتنة تَحرّكَ لها الشعبُ باسم حقوقه التى له على الخليفة ، رأى أن الخليفة لم يحسن توجيهها ، وكان هذا جديدا على الشعب ، أعنى أن الشعب لم يكن يعرف أن له على سادته حقا ، وقد عاش قبل الإسلام يعرف أن لسادته عليه كل الحق ، وليس له هو من الأمر شىء ، فعرّفه الإسلام هذا الحق له ، هداهم إليه الرسول قولا وفعلا ، ثم أيقظهم له عمر وحرضهم على تعقب من يليهم ؛ فلما نُبّهوا له

أيام عثمان لم يسكتوا عنه .

وفتنة ثانية تحرك لها قوم ظلمهم اختيار عثمان للخلافة دونهم ، ولم تكن هذه الفتنة إلا امتدادا لما كان بين بنى هاشم وبين بنى عبد مناف من تنازع على الرياسة .

وقد حرك هؤلاء الشعب معهم يخفون هـــذا المطمع الذى ناله عثمان دونهم ، ويُظهرون الذى ثار من أجله الشعب على عثمان .

وفتنة ثالثة دخل فيها هؤلاء الموتورون من عثمان باسم هذا الوتر وحده ، لم يعرفوا غيره ، ولقد كان هؤلاء أقسى الثائرين على عثمان وأعنفهم به ، يَمُد لهم فى غَيّهم رضى الذين يحملون اسم الفتنة الثانية ، واسترسال الذين يحملون اسم الفتنة الثالثة ، وأُنسهم بالثورة يرونها متنفسا ، ويُحسونها خلاصا من طاعة الحاكم .

وهكذا قضى عثمان يحمل وزر قتله أصحاب هذه الفتن الثلاث جميعا ، ولكن ثلاثتهم لم يغنموا شيئا .

فاغنم الموتورون : فمنهم من قَضى مقتولا ، ومنهم من عاش مشردا ، ومنهم من أفلت من القتل والتشريد ليعيش على وخز ضميره

وعنف نفسه به .

وما غنم الهاشميون الذين رجوا أن تخلص لهم الحياة وتعود السيادة إليهم ، بل لقد عرّضوا أنفسهم لأذى كثير .

وما غنم الشعب الذى هبّ ليرد إليه بعض ما سلب منه ، فلقد عاد ليسلب منه كل شىء ، وليذوق حروبا طاحنة حصدت شيوخه وأبناءه حصدا ، وفتناً مظلمة كقطع الليل تقض عليه مضجعه ؛ ثم إلى ما هو أدهى من هذا ومن ذلك ، فلقد رد إلى حكم فردى مستبد ، وليس له فى تدبير الأمور قليل أو كثير .

٣

وإن الأهواء التى فرّقت بين الناس فى مقتل عثمان فرّقت بينهم فيمن يختارون للخلافة بعده .

لم يَقْوَ الطامعون فى الخلافة على أن يُعلنوا عن أنفسهم ولا عن رغبتهم فيها ، بل صدّوا عنها حتى لا يسوء بهم الظن ، وحتى لا يُفسر الناسُ قعودهم عن إخماد الفتنة لوناً من المشاركة فيها .

وجـــد الموتورون من عثمان حيث هم يتربّصون بأنفسهم الدوائر ، ولم يكن واحد منهم أهلاً لأن يزكّىَ لها نفسه .

وأما الشعب فلقد لُقّن أسباب السخط فثار ، ولو قدر له أن يلقن غيرها من الوعى والبصر لأجمع على من يختار .

ولهـــذا بقيت المدينة أياما خمسة يلتمس الناس من يقوم بالأمر فيهم فلا يجدونه ، وكان أخشى ما يخشونه أن ينقلب الثائرون إلى أمصارهم دون أن يخلّفوا عليهم خليفـــة ، فتتفرق كلمة المسلمين ويعودوا أوزاعا وأشتاتاً بعد أن كانوا يداً واحدة .

ودبّ فى النفوس لون من ألوان اليأس لا يكون إلا حين

يفقد الناس ثقتهم بسادتهم وأولى الرأى والتدبير منهم ، وهو حين يكون يجر الأمة إلى متالفة قاصمة ، ثم يجرها إلى فوضى قائمة ، ثم يجرها إلى بلبلة لا تُفيق منها إلاّ على البوار والخسران .

كاد هذا اليأس القاتل يدبّ فى نفوس الشعب ، فما من شك فى أنه تحرك للثورة غيرَ بعيد من رأى أولى الرأى ، وما من شك فى أنه تحرك للثورة ورأى أولى الرأى فى قلبه وعلى لسانه .

وإذا هذا الشعب — بعد أن حقق ما أراد على غير ما أراد — فلقد أراد إخراج عثمان من الخلافة ، ولم يرد إخراجه من الدنيا على هذه الصورة المَرذولة — إذا هذا الشعب يلتمس أولى الرأى ليحققوا له الأمن والطمأنينة ، بعد ما حقق هو لهم الانتصاف ممن رُمى بالجور فى التدبير .

فإذا أولو الرأى عن الرأى صادفون : يجدون طلحة فى بُستان له ، ويجدون سعداً والزبير قد خرجا من المدينة ، ويجدون بنى أمية قد هربوا إلى مكة وإلى غير مكة ، وإذ أتوا عليّا باعدهم .

ولقد يئس الشعب من عثمان فثار به ، وها هو ذا ييأس من أولى الرأى فتمتلىء نفسه ثورة عليهم ، ولقد بدأ

يُبرق ويُرعد ، وهو إذا أبرق وأرعد فقد أنذر ، وإذا أنذر فقد أوشك أن يثور .

أحسسنا منه هذا الإبراق وهذا الإرعاد . وأحسسنا معهما الإنذار ، وأحسسنا مع هذا الإنذار التحفز ، حين النف بأهل المدينة يقول لهم : « ياأهل المدينة ، أنتم أهل الشورى ، وأنتم تعقدون الإمامة ، وحكمكم جائز على الأمة ، فانظروا رجلا تنصبونه ونحن لكم تبَع ، وقد أجّلناكم يومكم ، فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلن غدا عليا وطلحة والزبير وأناسا كثيرين » .

تلك زفرة اليأس التي زَفرها هذا الشعب حارّة تنبىء بحقد متأجج انطوت عليه الجوانح ، لو طال به الأمد لا نفجر عن شر مستطير .

وهال أهلَ المدينة ما صدر على لسان أهل الأمصار ، وقدروه قدره ، فتزاحموا على « عليّ » يناشدونه الله أن يقبل .

ولربما كانت تروق عليًا يوم أن كانت خلافة أُولىَ بعد أكرم راحل — أعني رسول الله صلى الله عليه وسلم — ولقد كانت النفوس أصبى ما تكون لهذا الشرف العظيم الذي يناله

من يخلف رسول الله على عباد الله ، أما وقد نُحى عنها على بأبى بكر أولا ، ثم بعمر ثانيا ، ثم بعثمان ثالثا ، فما هو بالمُزاحم عليها . فلقد أطفأ فى نفسه جذوة المزاحمة ذهابُ هؤلاء الأنداد الذين كان يحاول لعلى أن يجىء فى أولهم ، أما وقد ذهب أنداده فقد خَبت فى نفسه تلك الجذوة ، وعاد يرى الأمر تفضّلا منه إن قبل ، وأداء حق فى عُنقه للمسلمين إن أجاب .

وشىء آخر لم يغب عن فطنة « على » ، فهو لم يَغب عليه أن الذى تلده الفتنة فى حجر الفتنة يعيش ، وبلبانها يطعم ، وبين ساعديها يَشُبّ ، لا تتركه الفتنة حتى يترك ما وصله بها ، وقد لا تتركه هى وإن حاول هو أن يتركها .

لهذا قال لهم على : « دعونى والتمسوا غيرى ، فإنا مستقبلون أمراً له وُجوه وله ألوان ، لا تقوم به القلوب ، ولا تثبت عليه العقول » .

ولكن عليّا يرى لنفسه ، وهم يرون للأمة ، وهو حين يرى لنفسه بين يدى واجب خاص ، وهم حين يرون للأمة بين يدى واجب عام ، وليست نفس «على» من تلك النفوس التى تُشغل

بالواجب الخاص عن الواجب العام ، وما نظن عليا قال ما قال ليرد الناس عنه وليخلو هو إلى أمن الوادعين الذين يعبرُون الحياة عن عُرض ، ولا يدخلونها مسئولين فيها ، وإنما الظن أن عليا قال هذا ليُبَصِّر الناس بما هم قادمون عليه ، وليحذّرهم الفتنة عليه ، وليجمعهم معه على إخماد ما قد يثور .

لهذا ما كاد الناس يعقدون عليه الرجاء ويخوّفونه ماخافه هو على المسلمين ، حتى أجابهم وهو يقول : قد أجبتكم ، واعلموا أنى إذ أجبتكم ركبت بكم ما أعلم » .

ولكن الذى أراده الناس أن يمر هينا سهلا مَرّ عسيرا صعبـــا .

فلقد كان هينا سهلا أن تمحو ولاية علىّ آثار تلك الفتنه التى أودت بعثمان ، ولقد كان هينا سهلا : أن يأخذ علىّ بيد المسلمين إلى الطريق السوىّ ويردهم إلى أمن وطمأنينة ، ولقد كان هينا سهلا أن يلتئم شمـــل المسلمين بعد افتراق ، لو أنهم اجتمعوا كلهم على خلافة « على » لم يخرج عليه خارج منهم .

ولكن الذى أزعج عثمان أزعج عليّـا : ولقد استقبل عثمان

صدراً من خلافته مطمئنا ، واستقبلها علىّ غير مطمئن ، فعثمان قضى عمرا فى غير فتنة ، «وعلى» يوم أن حمل الخلافة حمل معها عبء الفتنة عليه .

يُدعى طلحة إلى بيعته فيمتنع ، فيسوقونه إلى البيعة سوقا ؛ ولا يبايع الزبير إلاّ والسيف على عنقه ، ويجاء بسعد بن أبى وقاص فيقال له : بايع . فيقول : لا ، حتى يبايع الناس . وهو يعلم ما تفعل كلمته فى نفوس الضعفاء .

ويجيئون بابن عمر فيقولون له : بايع ، فيقول مثل ما قال طلحة ، ويَهُمّ الأشتر النخعى أن يضرب عنقه ، فيقول على دعوه ، ويتجه إلى ابن عمر وقد امتلأ عليه غيظا فيقول له : إنك ما علمتُ لسيء الخلق صغيراً وكبيراً .

ويُحجم نفر من الأنصار عن بيعته ، وكلهم من المعدودين فى قومهم نذكر منهم حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، ومسلمة ابن مخلد ، وأبا سعيد الخدرى ، وزيد بن ثابت .

ويفر النعمان بن بشير بأصابع نائلة امرأة عثمان ـ وكانت قد قطعت وهى تحمى بيدها عثمان من ضربة سيف ـ وقميص عثمان

الذى قتل فيه ، فيلحق معاوية بالشام .

ويعلق معاوية قميص عثمان وفيه الأصابع يثير بذلك أهل الشام ، وإذا فتر أهل الشام وكادوا أن ينسوا انبرى عمرو بن العاص لمعاوية يقول له : حرك لها حوارها تحن . فيعود معاوية يعلق القميص والأصابع .

وهكذا أفسد أولو الرأى على الشعب مرة ثانية أمره ، ولم يجنحوا به إلى السلم والطمأنينة .

ولن يعدم أولو الرأى أن يجدوا مع الفتنة الثانية ما وجدوه مع الفتنة الأولى ، وليس بعزيز عليك أن تتلمس السقطات ، وليس بعزيز عليك أن تهيء للسقطات بحجة إن كنت من أصحاب الحجج ، وليس بعزيز عليك أن تخدع من ورائك شعبا تملك عاطفته قلبه فى الكثير ، وقلما يملك قلبه عاطفته .

ولكن العزيز عليك أن تغمض عينيك عن القليل من الشائمات لتحمى الكثير من الصالحات ، وأن تؤمن بخير الناس إذا غلب شرهم ليؤمن بإيمانك آخرون ، وألا تخدع شعبا فتحمله على شىء وأنت تعرف أن الخير فى غيره .

لقد قست الفتنة على عثمان ؛ ما فى ذلك شك ، ولقد قيل فى « على » وغير « على » من الصحابة كلام قد نال منهم : ما فى ذلك شك .

ولكنها كانت فتنة يراد منها فى جوهرها تحقيق العدل والنصفة ، لم يرد الثائرون فيها قتل عثمان ، وإنما أرادوا إبعاده ، وعلى الرغم من الثائرين لهذا المعنى من الثورة جاء قتل عثمان .

وكم تسوق الأقدار ما ليس فى التقدير والحسبان ، وكم يكون الناس عونا للأقدار عليهم إن هم لم ينسوا ما جاء عن غير قصد ، مهما يبلغ شره وضره ، وإن هم لم يعلموا أن الفتنة لن يدرك أمنها إلا بإماتتها ، فإنها كالنار كلما سعرت ازدادت .

هذا و « على » لم يكن خليفة لا يُرضَى . ولقد سعى الناس ليليهم خليفة يرضى .

ولو أريد الخير بالمسلمين ، وأريد لهم ألاّ يذوقوا بفتنة عثمان فتنا متصلة ، لنظروا إلى ما كان نظرة مجردة عن غرض أولا ، ثم نظرة المؤمن إلى قضاء الله لا يصله بما يزيده شرا

وضرا ، ولنظروا إلى « علىّ » على أنه من خيرهم فأعانوه .

ولكن الأمر كان كما رآه « علىّ » فتنة تتمخض عن فتنة ، وكان عليماً بنفوس من حوله من سراتهم ، وما أصدقه حين يقول :

ولو أن قومى طاوعتنى سَراتهم
أمرتهمُ أمراً يُديخ الأعاديَا

٤

وكما تحرك الشعب على عثمان بسبب ، تحرك الشعب على « علىّ » بسبب ، وقد وجد مثيرو الخلاف مع عثمان سببا ، ولم يعدموا أن يجدوا مع علىّ سببا . وكانت الفتنة هنا كما كانت هنالك لها ظاهر وباطن :

أما ظاهرها فكان ما عليه الشعب البرىء ، يصبه فى روعه المهيئون للفتنة ، وما عليهم إلاّ أن يزخرفوا له القول ، وهو المخدوع بزُخرف القول؛إذهو أسرع إلى وجْدانه وآبى على عقله، وما عليهم إلاّ أن يَعِدو ويُسرفوا فى الوعد والأمانى ، وما من أمة خلت ولا أمة ستجىء إلاّ وفيها هؤلاء الذين يعيشون لأمانيهم ، سعدت الأمة أو شقيت .

وهكذا ثار الشعب على « علىّ » يتهمه بالتفريط فى عقاب قتلة عثمان ، ويكاد يتهمه على هذا التفريط تهمة المشارك المحرض .

وإنهـــا الكبيرة على نفس الشعب الذى يعرف عليّا حق معرفته أن يعرفه علىّ هذه الصورة المزيّفة .

وإنها لكبيرة على نفس الشعب أن يؤمن بها ولا يُهب للضرب على يد فاعلها .

تلك كانت الثورة الظاهرة على عليّ . حُرك لها الشعب كما حُرك للفتنة على عثمان .

* * *

ولكن الثورة الباطنة كانت ثورة البيت المغلوب ؛ بيت بنى أمية ، على البيت الغالب ؛ بيت بنى هاشم .

تُعينها ثورة أخرى باطنة كانت ثورة نَفَر من الناقمين على عليّ ، وما كان «عليّ» يستطيع أن يُطهر نفوس الناس كافة من حقد عليه .

وما أحب أن أذكر لعائشة قولها لمن أنهى إليها مقتل عثمان واجتماع الناس على بيعة عليّ : ليت هذه انطبقت على هذه إن تم أمر لصاحبك ، رُدّونى . ردونى، وانصرفت إلى مكة وهى تقول : قُتل والله عثمان مظلوما ، والله لأطلبن بدمه .

وما أُحب أن أذكر قدوم طلحة والزبير إليها ، فتقول لهما : ماوراءكما ؟ فيقولان إنّا تحملنا هربا من المدينة من غوغاء، وفارقنا قوما حيارى لا يعرفون حقا ، ولا ينكرون باطلا، ولا يمنعون أنفسهم .

ما أحب أن أذكر هذا أو ذاك ولكنى أحب أن أذكر لك أنه حين خرجت عائشة ومن معها من مكة جاء مروان بن الحكم حتى وقف على طلحة والزبير فقال: على أيكما أسلم بالإمرة وأؤذن بالصلاة ؟...

فيقول عبد الله بن الزبير : على أبى عبد الله ـ يعنى أباه « الزبير » ويقول محمد بن طلحة : على أبى محمد ـ يعنى أباه : طلحة .

أذكر لك هذا لأصلك بهذا السبب الباطن للثورة الذى حدثتك عنه ، وأن هذا السبب الباطن كان يثير السبب الظاهر الذى تحرك له الشعب المقاتل مخدوعا .

٭ ٭ ٭

ويلتقى « على » وجيشه بعائشة وجيشها ، فإذا بينهما وقعة الجمل. وما أمرّها على النفس أن تخوض فيها ، وما أشقّها على اللسان أن يتحرك بها ، ثم ما أعصى القلم أن يَمضى فى سردها . وحسبك أن تعرف أنها تركت من الفريقين جرحى لا يُحصون ، وقتلى يعدّون بالمئات... قُتل فيها طلحة ، وقتل فيها الزبير ، وكادت أم المؤمنين عائشة أن يُصيبها مكروه .

٭ ٭ ٭

ومرت هذه الفتنة الأولى الباطنة لتهيء لفتنة ثانية باطنة أشد من هذه عمقا وأبعد منها غورا ، وهى الفتنة التى مهّد لها معاوية فى الشام.كلما اطمأنوا حرك لهم حذوارهم بقميص عثمان وأصابع نائلة.

وعفا الله عن عمرو بن العاص : فبمثله رزقت هذه الفتنة من يؤرّث لها ويذكيها ، فلقد كان يكره عليّا حقا.

يحكون عنه أنه لما بلغه قتل عثمان سمعوه يقول : إن يَلِ هذا الأمر طلحة فهو فتى العرب ، وإن يله ابن أبى طالب فهو أكره من يليه إلىّ .

وما نلوم عمرًا فى كراهيته لعلى ، فالقلوب تحب وتكره ، وما نكلفها فوق طاقتها ، ولكنا نلومه حين يكره العمل الصالح لأنه يكره صاحبه ،ويرد عن الحق صاحبَه لأنه له كاره .

* * *

وماإن تتحقق الولاية لعلى حتى يحقدعليه ويتربص به الدوائر ، ويأتيه نبــــأ وقعة الجمل وما كان من نصرٍ لعلى فيها فيضطرب عليه أمره ، وينظر يمنة ويسرة عمّن هو عدو لعلىّ مثله ، فيسمع أن معاوية بالشام لا يبايع لعلى ، وأنه يُمسى ويصبح على الثأر منه .

فيدعو عمروٌ إليه ابنيه : عبد الله ومحمدا ، يستشيرهما ، ويقول: ما تريان؟... أما علي، فلا خير عنده ، وهو غير مُشركى في شيء من أمره ؟

فيقول له ابنه عبد الله — وكان يرى للناس لا لأبيه —: تُوفى النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وهم عنك راضون ، فأرى أن تكُف يدك وتجلس في بيتك حتى يجتمع الناس على إمام فتبايعه .

ويقول له ابنه محمد — وكان غير أخيه، يرى لأبيه قبل أن يرى للناس — : أنت نابٌ من أنياب العرب ، ولا أرى أن يجتمع هذا الأمر وليس لك فيه .

ويعرف عمرو في قول ابنيه : ما هو خير له في دينه، ثم ماهو خير له في دنياه ، فيؤثر ما لدنياه على ما لدينه ، ويقول لابنيه : أما أنت يا عبد الله فأمرتني بما هو خير لي في آخرتي وأسلم في ديني ، وأما أنت يا محمد فأمرتني بما هو خير لي في دنياي وشرٌ لي في آخرتي .

يؤمن بهذا وذاك عمرو ، ولكن حب الدنيا يغلبه على

الآخرة، وحُب الخير لنفسه يغلبه على حب الخير للناس، وإذا هو خارج إلى معاوية فقادمٌ عليه ، وإذا الناس من حول معاوية يحضّونه على الثأر لعثمان، فيُقحم عمرو نفسه بينهم ويرفع صوته ليُسمِع معاوية : أنتم على الحق ، اطلبوا بدم الخليفة المظلوم .

ومعاوية لا يلتفت إليه ، ويلتفت له ابنه محمد — الذى أغرته الدنيا كما أغرت أباه — فيقول : ألا ترى معاوية لا يلتفت إليك . انصرف إلى غيره .

ولو وجد عمرو غير معاوية ما ترك قول ابنه وما حاد عنه . ولكن عمراً عربى يعرف الخصومة الأولى بين بنى أمية وبنى هاشم، ويعرف أن رجل هذه الخصومة اليوم هو معاوية، ويعرف أنه إن أخفق فى إثارة معاوية على علىّ فلن يفلح فى إثارة غيره ، ويعرف أن معاوية غير راجع وإن بدا عنه منصرِفا .

ويدخل عمرو على معاوية فيقول : أما والله إن قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة إن فى النفس ما فيها حيث نقاتل من تعلم سابقته وفضله وقرابته، ولكنا إنما أردنا هذه الدنيا .

أرأيت معى كيف أسرّ الثائرون بعلى من أولى الرأى أمرا وأعلنوا للناس غيره ، وكما بغاها معاوية لدنياه بغاها من التفّ حوله لدنياهم ، يضمهم إلى معاوية إما الكراهية لعلى ، وإما جاه الدنيا الذى أغراهم به معاوية؟ !.

ومن وراء هؤلاء شعب ضلّ عنه الحق ودخل عليه الباطل . وحَسْب هذا الشعب أن يجد كُلما مر بالمنبر قميصاً مخضوبا بدم عثمان وأصابع زوجته نائلة : إصبعين منها ، وشيئا من الكفّ ، وإصبعين مقطوعتين من أصليهما ، ونصف الإبهام ، والأجناد من حول هذا وذاك يبكون .

عندها لا تستكثر على رجال من أهل الشام أن يقسموا ألاّ يمس الماء جسومهم ، وألاّ يناموا على فراش حتى يقتلوا قتلة عثمان ، ومن قام دونهم قتلوه .

* * *

تلك هى حقيقة تلك الثورة ، يؤمن فيها القادة برأى ، ويؤمن فيها الشعب برأى ، وعلىّ تجاه هؤلاء وهؤلاء يدفع الدافعين للثورة بحجة ، ويدفع المدفوعين للثورة بحجة .

ولكن الدافعين كانوا ذوى أطماع دنيويه تُصم وتُعمى ، وكان المدفوعين إلى الثورة ذوى وجدان قد ثاروا ثورة لا تردها إلاّ ثورة مثلها ، وكما هاج لمعاوية ناس هاج لعلىّ ناس ، وكانت حرب أصاب السادةَ منها بأسٌ قليل، وأصاب الشعب منها بأس كبير . واستعصى التوفيق على الموفّقين ، وعَيّ الناسُ بأمرهم وضاقوا به ذَرْعا .

فإذا ثلاثة من الخوارج هم : عبدالرحمن بن مُلْجَم المرادى، والبرك بن عبد الله التيمى الصريمى ، وعمرو بن بكر التيمى السعدى يبيّتون الرأى على قتل على ومعاوية وعمرو ، فينجو معاوية ، وينجو عمرو، ويذهب علىّ مقتولاً بيد ابن مُلْجم.

٥

وهكذا يقضى علىّ بين يدى فتن ثلاث :

فتنة قديمة تمتد أصولها إلى الجاهليـــة الأولى حملها البيتان الأموى والهاشمى متنافسين فيها على الجاه والسلطان .

وفتنة حملها أنداد لعلىّ منافسون له أو ناقمون عليه .

وفتنة حملها فريق من الشعب ليرد ظُلما ويُقيم عدلا .

وفرق بين موقف هذا الشعب فى هذه الفتنة وبين موقفه فى الفتنة على عثمان ، فقد كانت ثورته على عثمان باسم الحق العام الذى للشعب على الخليفة ، كانت ثورة مجردة عن غرض ذاتى ، همها الخلاص من عثمان، وما كان همها الدعوةَ لغيره ، وهى لهذا ما كادت تبلغ هدفها حتى ارتدت تفكر فيمن يلى ليرد الأمور أمنا وسلاما كما كانت .

ولكن ثورة الشعب على علىّ كانت أضيق غرضا ، وكانت ذات لون طائفى ، وانقسم الناس فيها يمنة ويسرة لا تعلقا بالآراء ؛ ولكن تعلقا بالأشخاص ، وإذا هم عثمانيون وعلويون ، أو قل

أمويون وهاشميون .

وهكذا اتسع ما بين الأمويين والهاشميين من خلاف حتى انتظم الناس معهم ، فلقد عاش الأمويون والهاشميون والخلاف بينهم لا يعدوهم إلى غيرهم ، يحقد الأموى على الهاشمى ، ويحتاط الهاشمى من الأموى ،والناس من حولهم لا يشاركون فى شىء من ذلك . ثم إذا هم قد لفّوا الشعب كله فى حبالهم، لا يرضيهم أن تعيش الفتنة قاصرة عليهم ؛ بل أرادوها عامة تعم الجميع .

وفرق بين حياتين : حياة جاهلية يعيش الناس فيها قبائل لكل قبيلة نظامها ، وحياة متحضرة تجمع ما بين الناس جميعا على نظام واحد ، كادت القبائل تذوب فيه بكل ما لها ، اللّهم إلاّ أواصر قربى ووشائج نسب .

من أجل هذا لم يستطع الأمويون والهاشميون أن يدخلوا هذه الحرب الجديدة إلا إذا جمعوا هذا الشعب إليهم ، فكسب هؤلاء فريقا ، وكسب هؤلاء فريقا ، وباتت وحدة الشعب التى عقد الإسلام عقدتها فُرقة قاسية يهيىء لها ميادينها الأمويون والهاشميون ، ويحرّض الناسَ عليها المُغرضون والمنتفعون ،

والمبغضون والحاسدون ، ويصلى نارها الشعب المغبون .

وكما أثار قتلُ عثمان الأمويين يجعلون منه سببهم للانتصاف من الهاشميين ؛ أثار الهاشميين قتلُ علي ، يجعلون منه سببهم للثأر من الأمويين .

ولكن عثمان قُتل وكان وراءه داهية استطاع أن يجمع إليه الناس بالحيلة والدهاء ، وقُتل عليّ فلم يَخلفه على بني هاشم من هو مثل معاوية دهاء وسعة حيلة .

وعاش معاوية ومضى على ، فخلا لمعاوية الميدان ، لهذا قامت للأمويين دولة واختفى بنو هاشم يتجرعونها غصصا إلى حين .

٦

وكان أنصار معاوية بالشام تجمع بينهم الطاعة ، وشيعة على بالكوفة يفرق بينهم الرأى ، لذلك كان معاوية قويًا بمن معه ، وعلىّ ضعيفا بمن انضم إليه . ولقد كان الحسن بن على قادراً أن يقف بمن معه من جند أبيه — وقد بلغوا أربعين ألفا — فى وجه معاوية ، وقد يُكتب له النصر ، ولكنه ما إن تحرّك للقاء معاوية بهذا الجيش الكثيف — وعلى مقدمته قيس بن سعد — وبلغ المدائن ونادى مناد فى العسكر بأن قيس بن سعد قد قتل ، حتى تفرق العسكر شذر مذر ، لا يفرّون فرار الجبان فحسب ؛ ولكنهم قبل أن يفروا يزيدون إلى نكر الفرار نكرا أشد وأدهى ، فيعرّجون على سرادق «الحسن» لينهبوه ويجرّدوه مافيه ، وكأنهم قد عز عليهم أن يتركوا له بساطا تحته ، فنازعوه إياه .

* * *

فلا لوم على الحسن بعد هذه أن يكتب لمعاوية فى الصلح ، ولا لوم على الحسن بعد هذه أن يقضى برأيه ويعدل عن رأى

أخيه الحسين ، وكان الحسين ناشده الله ألاّ يثق بقول معاوية .

وكما كان أهل الكوفة مع أبيه خلافاً وعنادا كانوا معه خلافاً وعنادا وقلة رغبة في القتال ، فهم الذين ترددوا أولا في بيعته حين شرط عليهم أن يُسالموا من سالم ويحاربوا من حارب يقولون : ما هذا لنا بصاحب ، وما يريد إلا القتال .

وهم الذين حين صالح الحسن معاويةَ ، وكتب إلى قيس بن سعد يأمره بالدخول في طاعة معاوية ، وقام قيس يقول لهم : « أيها الناس أتختارون الدخول في طاعة إمام ضلالة أو القتال مع غير إمام؟ قالوا : بل نختار الدخول في طاعة إمام ضلالة ، وبايعوا معاوية .

وما أصدق الحسنَ حين قيل له : ما حملك على ما فعلت ؟ . . . قال : رأيت أهل الكوفة قوماً لا يثق بهم أحد أبدا إلا غُلب ، ليس أحد منهم يوافق آخر في رأى ولا هوى ، مُختلفين لا نيَّة لهم في خير ولا شر .

٭ ٭ ٭

وهكذا خرج الحسن من الخلافة بعد أن أحسّ أنه لا جند معه ، واستقر معاوية في الخلافة بعد أن أحسّ أنه عزيز بُجنده ،

يأمر فيأتمرون، ويدعو فيُطيعونَ، ومضى يُثبِّت المُلك،
يُقرِّب إليه من يَنصرُ ويُعين، ويُنكِّل بكل من تسوَّل له
نفسُه الخروجَ عليه أو النَيل من سلطانه، لا يَعْبَأ بأى رأس
يُطيح به لمن يكون .

٧

وكما كان قَتْل « علىّ » ترجيحاً لكفة معاوية وإخلاء للميدان أمامه من مُنافس قوىّ ، كذلك كان موت « معاوية » ترجيحاً لكفة « الحسين » وإخلاء للميدان أمامه من مُنافس قوى ، لو أنه رزق عُدة من جُند صادقين مُخلصين مُطيعين .

فما أعطى بنو هاشم إلا عن يدٍ وهم صاغرون ، أعطى « الحسنُ » « معاوية » فى الخلافة حقَّه ، لأنه وجد نفسه لا يناصره عليها إلا أهلُه بالرأى والدّعوات ، وقد أفلت جنده منه وكادوا يَنْتقضون عليه .

وسكت الهاشميون بعد نزول « الحسن » عما نزل عنه لأنهم رأوا أنفسهم مغلوبين ، ورأوا بنى أمية غالبين ، ومات « معاوية » فأصبح الحسين — وهو ابن « على » — ندا ، أو أبعد من نِد ، لـ « يزيد » ، وهو ابن « معاوية » .

وما نزل « الحسين » عن حقه ، ولكن نزل « الحسن » ، وهو قد ترك دُنيا الناس للناس منذ عشرة أعوام ، فانفتح الباب أمام

« الحسين » ليُطالب بما شاء دون أن يقف فى سبيله أخوه « الحسن » بنزوله عن حقه .

أحس ذلك بنو أمية وعلى رأسهم يزيد بن معاوية ، وأحسّ ذلك بنو هاشم ، وعلى رأسهم « الحسين » بشيعته . فأما « يزيد » فقد أرسل لعامله على المدينة « الوليد بن عُتبة بن أبى سفيان » يأمره أن يأخذ « الحسين » بالبيعة أخذاً ليس فيه رُخصة حتى يبايع .

ويدعو « الوليد » « الحسين » إليه يطلب منه أن يبايع ، ويفطن « الحسين » إلى ما يراد عليه من أخذه على غرة ، فيقول للوليد : مثلى لا يُبايع سرًّا ولا يُجتزأ بها منى سرًّا ، فإذا خرجتَ إلى الناس ودعوتهم للبيعة ودعوتنا معهم كان الأمر واحدا .

يريد « الحسين » بذلك أن يمهل نفسه فلا يُسرع فيُعطى ما يندم عليه بعدُ ، ويريد أن يُمهل نفسه فلا يُسرع فيرفض ما قد يجُرّ عليه شرًّا ، لأنه لم يكن قد خَبر بعدُ ما عند أصحابه وعزمهم على نصره واستعدادهم لخوض المعركة معه .

وقد فطن مروان بن الحكم — وكان حاضرها — إلى ما فى إجابة الحسين من تدبير ، وما وراءها من أهبـــة ، فنظر إلى « الوليد بن عتبة » يقول : لئن فارقك الساعة ولم يبايع لا قدرت ثانية على مثلها أبدا حتى تكثر القتلى بينكم وبينه ، احبسه فإن بايع وإلاّ ضربت عنقه .

مُلْك — ومروان أحد المنتفعين به — يملى عليه ، لا يبالى فى سبيله أية خطة يركب ، ولا أى ظلم يقترف ، ولا أى عدوان يأتى ، لا تدفعه عن ذلك رحمة عباد الله ، ولا التفــاته إلى ما رسم الإسلام من حماية الأنفس والحقوق .

ولئن كان « مروان » تغلبه دنياه على دينه ، فلقد كان الوليد ابن عتبة » يغلبه دينه على دنياه ؛ ولقد كان كلاهما أمويا .

ولكن « مروان » كان أمويا قد أنسته أمويته كلّ شىء ؛ حتى دينَه ، وكان « الوليد » أمويا ذكر إلى جانب أمويته دينَه ؛ لذا كان « مروان » يملى عن أمويته فحسب ، وكان « الوليد » يملى عن أمويته ودينه معا ، وكان « مروان » لا يخاف أخراه بقدر ما يخاف دنياه ، فلا عليه إن مضى من دنياه بحظه موفورا كما

يحب ، وليكن فى الآخرة ما يكون .

ولكن « الوليد ابن عتبة » يخاف أخراه أكثر مما يخاف دنياه فليمض من دنياه بأقل حظ ليلق آخرته بأكثر حظ ؛ لهذا اتجه إلى « مروان » . بعد خروج « الحسين » عنهما غاضبا — وهو يقول له : « ويح غيرك يا مروان ، والله ما أحب أن لى ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكها وأنى قتلتُ « الحسين » أن قال : لا أبايع ، والله إنى لأظن أن امرأ يحاسب بدم « الحسين » لخفيف الميزان عند الله يوم القيامة » .

ويستخزى « مروان » لكلام « الوليد » ، فما كان يظنه — وهو أموى مثله — يبدهه بهذا القول المحرج . والمبطلون أسرع الناس انكسارا بين يدى الأقوياء بالحق ، وأسرع الناس نكوصا حين تلزمهم الحجة ، إذ الباطل ضعيف وإن بدا به أهله أقوياء ، فإن وجدوا من الناس انصياعا لهم واستسلاما أمعنوا يزيدون ، وإن وجدوا الناس على غير الانصياع والاستسلام ارتدوا أضعف ما يكونون ، قد تؤمن منهم الألسنة والقلوب ، وعندها لا يرتدون ، وقد تؤمن منهم الألسنة دون القلوب ، وهم

المخادعون . وكذلك كان « مروان » : آمن بما قال « الوليد » لسانا لا قلبا ، وكان من المخادعين ، فالتفت إلى « ابن عتبة » يقول له : إن كان هذا رأيك فقد أصبت ! يقول له هذا وهو غير حامد له على رأيه .

٨

وخرج « الحسين من المدينة يتبعه بنوه وإخوته وبنو أخيه ، لم يتخلّف منهم إلا أخوه « محمد بن الحنفية » . ولقد كان « محمد » يرى الحق لأخيه ، ويرى الخوف على أخيه ، وهو لهذا أحب له أن يسعى ، وأحب له أن يحتاط وهو يسعى : لم يصرفه عن هذا الحق لأنه كان يؤمن به معه : بل شجعه عليه ؛ ولكنه كان أخبرَ بأهواء الناس ، دلّوه عليها بموقفهم من أبيـــه « على » ، ودلّوه عليها بموقفهم من أخيـــه « الحسن » . فجمع لأخيه بين تشجيعه له وخوفه عليه في هذا الكلام الذى نحرص أن نسوقه لك ، فاستمع إليه يقول لأخيه « الحسين » « : يا أخى « أنت أحبُّ الناس إلىّ وأعزهم على ، ولست أدخر نصيحة لأحد من الخلق أحقّ بها منك . ابعث رسلك إلى الناس وادعهم إلى نفسك ، فإن بايعوا لك كان ما تحب ، وإن أجمع الناس على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك . إنى أخاف أن تأتى نفرا أو جماعة من الناس فيختلفوا عليك ، منهم طائفة معك وأخرى

عليك ، فيقتتلون ، فتكون لأول الأسنّة ، فإذا خير هـذه الأمة كلها — نفساً وأبا وأما — أضيعُها دماً وأذلُّها أهلا » .

أرأيت إلى « محمد » كيف دفع إلى الحق ومَنع منه ، يدفع إليه دَفع المؤمن به ، ويمنع منه منع المشفق الخائف على أخيه .

ولكن « الحسين » كان قد اعتزم أمراً لا يريد الرجوع عنه ، يغلب إيمانه به خوفه من عواقبه .

وما نعيب على « الحسين » خروجه على « يزيد » يبغي حقا يراد له ، وما نعيب على « يزيد » تمسكه بحق سيق إليه ؛ ولكنا نعيب على هذا الشعب الذى اختلفت كلمته فلم يعرف كيف يجمعها ، ووقف حائرا يفرّق هواه بين « الحسين » و « يزيد » ، ولقد ذاق جزاء حيرته تلك شرا كبيراً ، ما كان أغناه عنه لو اجتمعت له كلمته ؛ وأذاق « الحسين » شرا كبيرا ، ما كان أنجاه منه لو كانت له كلمته ، وما نظن « يزيد » إلاّ ذاق هو الآخر همًّا متصلا ونصَباً .

ولكن هذا الشعب لم يعرف هذه الكلمة الموحدة التى له فيحرص عليها ، فلقد تعلمها فى اختيار « أبى بكر » ، ثم كان

قريبا منها فى اختيار « عمر » ، ثم تمثلها مطبّقة فى أضيق حدودها فى اختيار « عثمان » ، ثم همّ أن يردها إليه كاملة فى ثورته على « عثمان » ، ثم أملاها مرتجلة فى اختيار « على » ثم ردته عنها الفتنة بين « على » و « معاوية » ردّا عنيفا ، فإذا هو لا يعرف كلمته التى له ، وتفرق لا يدرى أيجتمع حول « الحسين » لنسبه وفضله وقدره ، أم يجتمع حـــول « يزيد » لماله وجاهه وإغرائه وقهره .

ولو قدر لهذا الشعب أن يوجد الوجود القوى الموحد الذى أراده له الإسلام ، لأمـــلى فى تلك الخصومات بالرأى الحاسم ، واقطع دابر تلك الفتن ، ولأراح نفسه من عناء كثير .

* * *

وخرج « الحسين » من المدينة يقصد قصد مكة ، فيلقاه عبد « الله بن مطيع ، فيقول له : جعلت فداك ، أين تريد ؟

فيقول الحسين : « أمّا الآن فمكة ، وأما بعـــدُ فإنى أستخير الله » .

وكأنى بالحسين لم يكن قد دبّر الأمر قبل خروجه عن المدينة ، وإنما هو قد أجاب « الوليد بن عتبة » بما أجاب ، وسمع من « مروان بن الحكم » ما سمع ، فأوجس فى نفسه شرا ، وقد انطوت نفسه على أمل ، فترك حيث يخاف إلى حيث يأمن ، وخرج ينشد أنصاره على حقّه ، بعيداً عن ملاحقة « الوليد ابن عتبة » له ، وقد فعل ، وبعيــداً عن ائتمار « مروان » به ، وقد يفعـــل .

☆ ☆ ☆

٩

ولقد كان فى مكة خارج آخر على بيعة « يزيد » له خطره ، ولقد حاطها هو الآخر هاربا من المدينة ، هو : « ابن الزبير » .

وفى مكة لقى « الحسين » « ابنَ الزبير » واستمع إليه يشير عليه بالرأى . ولكنا لم نعلم أنهما اجتمعا على جهد موحّد وهما بين يدى غرض واحد .

كما قد خالف « الحسين » و « ابن الزبير » خارجا ثالثا على بيعة « يزيد » أيضا ، وله هو الآخر خطره ، هو « ابن عمر » .

ولكنا لم نعلم أن « الحسين » و « ابن الزبير » اجتمعا معه على جهد موحد ، وهم ثلاثتهم بين يدى غرض واحد .

غير أنا نعلم أن كل واحد منهم كان يبغيها لنفسه ، أسر ذلك أو جهر به ، ولهذا لم نعلم لهم هذا الجهد الموحد .

ولو أن الشعب عرف كلمته التى له - كما قلنا - لوفر على هؤلاء السادة هذه البلبلة الفكرية ، ولردهم إلى كلمة سواءٍ ، ولكفى نفسه مؤونة الخوض مع بعضهم معارك دامية حمل هو فيها العبء الأكبر .

١٠

وشيعة « الحسين » الذين عليهم معتمده ، هم فى الكوفة ، ليسوا من بين أهل مكة ، وليسوا من بين أهل المدينة . وحين بلغهم موت « معاوية » ، ثم امتنــاع « الحسين » ، ومعه « ابن الزبير » و « ابن عمر » عن البيعة لـ « يزيد » تنبهوا لما يجب عليهم نحو من شايعوه وتشيّعوا له ، ولقد استكانوا حكم « معاوية » كله ، بعد أن سلم « الحسن » الأمر لمعاوية ، فسلّموا هم الآخرون الأمر لمعاوية ، على اختلاف فى التسليم ، فلقــد سلم « الحسن » عن يأس وقنوط ، وسلموا هم عن وَنىً وفترة .

وعندى أن الشيعة الذين اجتمعوا حول « الحسن » فى يومهم الأول ، ثم خذلوه فى يومهم الثانى ، والذين وصفهم « الحسن » حين خطبهم ينعى عليهم هذا فقال لهم : « كنتم » فى مسيركم إلى صفــين ، ودينكم أمام دنياكم ، وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم » .

نعم ، عندى أن أنصار « الحسن » بالأمس كانوا غير أنصار « الحسين » اليوم ، والبيئة التى أنبتت أولئك هى البيئة التى أنبتت هؤلاء ، والرأى الذى حرك السابقين هو الرأى الذى انتظم اللاحقين ، ولكن شيئا واحدا هو الذى خالف بين هؤلاء وهؤلاء ، فأنصار « الحسن » كانوا قد خرجوا من حرب مضنية مُهلكة خاضوها مع « على » وهو يحارب « معاوية » ، وكانوا قد شوّش عليهم أفكارهم ، وبلبل فيهم خواطرَهم حُكم الحكمين : « عمرو بن العاص ، وأبى موسى الأشعرى » ، وكانوا قد أفسد عليهم عقولهم ما خرج به الخوارج من آراء .

فلمّا أن سلّم « الحسن » خلصوا إلى أنفسهم يلومونها على ما فرّطت فى جنبه ، ووادعتهم الحياة نحوا من عشرين عاما لم يضمّهم ميدان لحـــرب ، ولكن ضمّتهم ميادينُ للكلام ، نفضوا فيها عن أفكارهم ما كان يشوشها ، وعن خواطرهم ما كان يبلبلها ، وعن عقولهم ما كان يزلزلها ، فإذا هم قد عادت لهم قوة البدن ، وقوة الرأى والعقـــل ؛ وإذا هم على أول الطريق يرقبون الداعى .

وكأنى بالحسين قد بان له هذا فخرج يطلب حقه ، وكأنى به لم يشجع على هذا الخروج إلا حين رأى تلك المعانى وآمن بها وبغيرها ، فما كان بعيداً عما فعله هؤلاء الشيعة بأبيه ، وما كان بعيدا عما فعلوه بأخيه ، وما كان هو غير بصير لا ينظر للأمر من وجوهه ، وما كان طامعاً قد غمى الطمعُ على بصيرته فسلبه الحذر وأسلمه إلى الغرور .

و « الحسين » بعد هذا كله كان مؤمنا بحق بيته الإيمانه كله ، وكان على إيمانه به حريصًا عليه لا يرى التفريط فيه ، رُغّب أو هُدّد ، وهو لهذا قد وقف لأخيه « الحسن » — حين ألانه قبولُ « معاوية » شروطه ، يجادله ألا يفعل وهو يقول له : أنشدك الله ألا تصدق أحدوثة معاوية وتكذب أحدوثة أبيك .

فيرد عليه « الحسن » هذا الرد الذى لا جواب معه : « اسكت أنا أعلم بالأمر منك » .

وردّ أحسّ فيه « الحسن » أنه الأكبر فأجاب ناهيا ، ورد أحسّ فيه « الحسن » أنه خبر الأمور فقال قاطعا .

وسكت « الحسين » لأن الحق كان لأخيه وليس له أن

يُزحزحه عنه ، ولأن أخاه لم يرد أن يَسمع فيما عزم عليه نصحا .

وسكت « الحسين » حياةَ أخيه لأنه لم يكن يملك غير السكوت ، وسكت « الحسين » عشر سنين أخرى بعد وفاة أخيه لأن « معاوية » كان أقوى من أن ينازَع وكان أنصاره هو لم تستقم لهم أمورهم .

١١

وهكذا خرج « الحسين » من مكة يطلب حقه حين تهيأت له هذه الأسباب كلها ، ولم يشأ أن تفلت منه .

وكانت الأسباب التى تهيـــأت للحسين هى الأسباب التى تهيأت لأنصاره ؛ فلقد مات « الحسن » رضى الله عنه ، وما كان لهم أن يتحركوا فى حياته ، ولقد مات « معاوية » — رحمه الله — وكان مَن كان سطوة عليهم وجبروتا ؛ ولقـــد تحرك « الحسين » وما كان أرقبهم لهذا الخروج وأشدّ تلهُّفهم إليه .

ولقد ولِىَ « يزيد » والناس عليه مختلفون ، فما أحينها فرصـــة للإرجاف به لينصروا « الحسين » ويخذلوه .

* * *

هـــذا اجتمعت الشيعة فى منزل كبير لهم هو « سليمان بن صرد الخزاعى » ، وكتبوا إلى « الحسين » هذا الكتاب الخالد لهم وعليهم ، والذى لا يدع مجالا للحسين أن يتلبث أو أن يتريث ، يقولون فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، سلام عليك ، فإننا نحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو .

أما بعد . فالحمد لله الذى قصم عدوك الجبار العنيد ، الذى افترى على هـــذه الأمة فابتزّها أمرها ، وغصبها فيئها . وتأمّر عليها بغير رضى منها ؛ ثم قتل خيارها ، واستبقى شرارهـا

وإنه ليس علينا إمام فأقبل لعلّ الله أن يجمعنا بك على الحق ، والنّعمان بن بشـــير فى قصر الإمارة؛ لسنا نجتمع معه فى جُمعة ولا عيـــد ، ولو بلغنا إقبالك إلينا أخرجناه حتى نُلحقه بالشام إن شاء الله تعالى . والسلام عليك ورحمه الله وبركاته .

* * *

كفر بمعاوية ومَن ولد ، وإيمان بالحُسين معه إيمان بقوتهم على أنهم قادرون ، لا يمنعهم أن يظهروا على عدوهم إلاّ أن يجدوا من يجتمعوا عليه ، ولقد صوّروا له واليهم شخصاً لا نفع فيه ولا ضير منه ؛ إن شاءوا أبقوا عليه ، وإن

شاؤا نَفَوْه عنهم .

ولقد شفعوا هذا الكتاب بكتاب آخر ، فعلَ الواثق تنفرج له الساعات عن سانحات تَعجل به وتَدفعه إلى مزيد من الإقدام ، ثم عن حَذر معجل به هو الآخر ، ويَدفعه إلى مزيد من الإسراع .

من أجل هذا وذاك لم تُمهل الشيعة « الحسين » حتى يصل كتابهم إليه ، ولم يُمهلوا أنفسهم حتى يصل جواب « الحسين » إليهم ، وسيّروا بعد ليلتين رسولا لهم ثانيا بكتاب لهم ثان إلى « الحسين » ، يذكر المؤرخون أن صفحاته بلغت الخمسين بعد المائة .

وفى يقينى أن هذه الصفحات التى جاوزت المائة بخمسين لم تكن كلامًا كلها ، فما فى ليلتين يستطيعون أن يحبروا هذا الكتاب ، ولا بعد ليلتين من كتابهم الأول يكونون قد أدركهم هذا الفيض من الرأى لتمتلىء به هذه الصفحات .

وإنما الذى أكاد أجزم به أن كتابهم الأول إلى « الحسين » أمضاه نفر منهم قليلون ، وكان أن حِذَروا أن يظن « الحسين »

أن ناصريه قلة ، وأن الداعين له عدد معدود ، وما أحرى « الحسين » أن يصدق ، وما أحراهم هم أن يشكوا فى أنفسهم : لهذا حبّروا لهذا الكتاب الثانى يذكرون فيه ، مع كلمة كانت لا شك قصيرة . وكانت لا شك فى معنى الكلمة الأولى ، يذكرون فيه أسماءهم اسماً اسماً ، وبهذا وحده ملئوا تلك الصفحات التى بلغت مائة وخمسين صفحة ، أسماء جلة القوم ومشهوريهم .

هذا الحذر هو الذى عجل بهم فبادروا إلى إرسال كتابهم الثانى إلى « الحسين » بعد ليلتين من كتابهم الأول ، ليملئوه يقينا ، وليضمنوا خروجه إليهم .

وهكذا بدأ الشيعة يسبقون « الحسين » إلى الثورة ، بعد أن سبقهم هو إليها . وهم حين فعلوا ما عليهم ووثّقوه أصبحوا حريصين عليه متلهّفين إليه ، من أجل ذلك لم يجتزئوا بما كان أولا وما كان ثانيا ؛ بل أرسلوا رسولا ثالثا إلى « الحسين » يحثّونه على المسير إليهم .

أمور لا تترك « الحسين » — وهو المؤمن بحقه ، الجرىء

به ، الثائر له — يتلبث أو يتريث ؛ فلقد أظهروا تأييدهم له أولا ، ثم قضوا بالذى فعلوا ثانيا على حذره ، فلم يبق له إلاّ أن يسرع إليهم ، وقد أرسلوا يستعجلونه ،

ولكن « الحسين » على هذا كله كان يحب أن يطمئن شيئا ، فكتب إليهم : أما بعد . فقد فهمت كل الذى اقتصصتم . وقد بعثت إليكم بأخى وابن عمى وثقتى من أهل بيتى : « مسلم بن عقيل » ؛ وأمرته أن يكتب إلىّ بحالكم وأمركم ورأيكم . فإن كتب إلى أنه قد اجتمع رأى ملئكم وذوى الحجى منكم على مثل ماقدمتْ به رُسلكم ؛ أقدم إليكم وشيكا إن شاء الله

فلعمرى ما الإمام إلاّ العامل بالكتاب والقائم بالقسط والدائن بدين الحق . والسلام .

١٣

ويخيل إلى أن « الحسين » كان عجلا هو الآخر ، على الرغم مما بدا من تريثه ، وإرساله « مسلما » على الطريق قبله، يتطلع له قبل أن يمضى هو .

ويكاد خطابه هذا يكشف عن عجلته تلك ، فلقد كان فيه « الحسين » موجزا كل الإيجاز . يستعجل نفسه عن أن يطيل فيضيع وقتا ، ويستعجل نفسه عن أن يمهل رسوله إليهم « مسلم ابن عقيـــل » فترة أخرى فتفوت الفرصة ، وكأنى به قد أحس أن العيون أخذت ترقبه ، والآذان أرهفت لتسمعه ، وقد فوت هو وقتا فلا يجب أن يفوت وقتا آخر .

من أجل هذا كله كتب « الحسين » كتابه الذى كان يجب أن يصدر عنه، فيه الإسهاب، وفيه الإطالة . إن لم تكن مبادلة للقوم على مافعلوا من مثلها ، فما كان أولاه أن يصدر عنه يضم رأيه، ويكشف عن حقه ، ويتضمن سابقة ، ويذكر فضلا .

لقد خلا الكتاب من شيء من هذا كله ، وكان يجب أن

يضم هذا كله ، واجتزأ فيه « الحسين » بتلك الكلمة القصيرة التي ضمنها صفة الإمام العادل ، وكأنه ، إنما كان يعني نفسه ، وينعى بها على غيره .

ولعل « الحسين » إلى جانب تلك الخشية التي عجلت به عن أن يطيل ، كان على ثقة من نوايا هؤلاء الأنصار ، فكف عما يجب أن يقال مثله لمن ليس لهم علم هؤلاء بأمرهم وبتقيتهم به .

* * *

ومضى « مسلم بن عقيل » برسالة « الحسين » يسعى نحو الكوفة بعد أن أوصاه « الحسين » بما يريد منه .

فلقد أوصاه بتقوى الله ، وكان ذلك أول ما أوصاه به لا عن شك في « مسلم » ، ولكن خوفاً عليه من دنيا قد ازدحمت بالفتن ، منها المغري الممعن في الإغراء الذي لا يقوى على كبح نفسه دونه إلا من عصم الله بتقواه ، ومنها المرهب الموغل في إرهابه الذي لا يصمد له ولا يقوى عليه ؛ إلا من خشي الله وحده ولم يخش سواه ، و « مسلم بن عقيل » رسول « الحسين » الأول ، وقد يكون الأخير — فليست الفتنة مُمهِلة « الحسين » ليختبر من يختار

فهو إن مال أو نكص انقلبت الفتنة عليه ولم تستو له .

ولقد أوصاه بكتمان أمره ، وأن يلطف بالناس ولا يعنف بهم ، فإن رآهم مجتمعين له عجل إليه ليخبره .

٭ ٭ ٭

ولقد اختار « الحسين » لرسالته ثقة من أهل بيته ، ولكنه لم يختر منهم جلداً يؤمن بها إيمانه ، ولا يهوله فيها ما يركب ، فما كاد « مسلم » يودع أهله ويودعونه ، وينفصل عن المدينة حتى يضل الطريق ، وينفد ما معه من ماء فيموت دليلاه عطشاً ، ثم تستقيم له الطريق إلى الماء ، فيبلغه بعد جهد وليس فيه إلا زماء ، ويرى نفسه حين بلغ الماء قد نزل مكاناً يدعى المضيق ، فيتطير ويهلع ، ويكتب إلى « الحسين » بعد أن يصف له ما كان :

« إن رأيت أعفيتني وبعثت غيري » .

وما فزع اسم المكان « مسلم بن عقيل » ، ولا فزعه هذا التطير ، ولكن كان — كما قلنا — غير مؤمن برسالته إيمان أخيه بها ، فما إن وقع على سبب مما يجزع الناس له جزعا خفيفا ، حتى جزع هو له جزعا شديدا ، ونظر إلى حياته وإلى ذلك المطلب الذي

خرج له ، فرأى حياته أعزّ عليه من ذلك المطلب ، وهو إن رجع فقد ضمن الحياة ، وإن مضى فما هو بضامن نُجْح ذلك المطلب .

ولعل شيئا آخر كان يشغل نفس « مسلم بن عقيل » ، قد يكون وضح له . فهو يستملى منه وهو يشعر ، وقد يكون خاطراً يُصدر هو عنه وهو لا يشعر ، وقد يكون هـــذا الشيء الذى انطوت عليه نفس « مسلم » بين الخفاء والظهور ، هو أن « مسلما » ساع لغيره لا لنفسه ، سيصيب الخيرُ بيته . إن قدر لهذا الخير أن يجىء ، ولكن أين ترتيبه من هذا ، وماهو موضعه من هذا الخير .

إن صح هذا أوّلنا ما كان من « مسلم بن عقيل » من الثناء وإيثار للرجوع . فلم يكن التطّير وحده علة هذا ، وإنما كان قبل التطير هـــذا الخاطر الذى تحرك فى نفسه عن قصد أو عن غير قصد ، وما نحب أن نظن بمسلم الجُبن وإن كان قد ظنه به أخوه « الحسين » حين قال له وهو يرد عليه : أما بعد . فقد خشيت ألا يكون حملك على الكتابة إلىّ إلا الجبن ، فامض لوجهك .

* * *

ولقد دلنا « مسلم بن عقيـــل » بالذى فعل كيف ستمضى

المعركة ، وهو حامل لوائها ، فما نشك فى أنه مضى إليها مأمورا غير مريد ، مقهورا غير مختار . هنا لن تنفعه تقوى الله التى أوصاه بها أخوه وهو يرسله ، فلقد ملكه الخرف ، يذكيه فى نفسه أنه قد تطير ، ويذكيه فى نفسه أن الغنم لغيره ، وهو فيه مأجور له حظ قليل .

ولن يكون رفيقا بالناس كما أوصاه أخوه ، فقد برم بما يحمل وضجر ، والرفق بالناس لا يصدر إلا عن قلب قد امتلأ رضى وطمأنينة ، كما لن يكون كتوما كما أوصاه أخوه ، فهو فى حيرة من أمره ، والكتمان شىء لا يقوى عليه إلا من ملك زمام نفسه ، ولم تلح عليه الحيرة خاطره .

وما يكاد « مسلم » تطأ قدماه الكوفة حتى يمضى يؤدى رسالته على الوجه الذى فرضه عليه هذا التطير ، وهذا الخاطر ، وهذا البرم ، وهذا الضجر ، وهذه الحيرة ، ويلتف به الناس علانية ، ويقرأ عليهم كتاب « الحسين » جهرة ، فإذا هو قد علم مكانه ، وإذا والى الكوفة « النعمان بن بشير » قد نذر به .

* * *

ويفزع « النعمان بن بشير » إلى المنبر يخطب النـــاس وقد اجتمعوا إليه، وكان حليماً ناسكاً يحب العافية، وهو على ذلك كان لا يحب أن يُغلب على أمره، فأخذ يحذّر الناس الفتنة أولا، يملى عليه فى ذلك قلبه؛ ثم أخذ ينذر الناس بطشه ثانيا، يملى عليه فى ذلك حرصه على ألاّ يُغلب.

ولكنّ رجلاً من أحلاف بنى أمية هو « عبد الله بن مسلم ابن سعيد الحضرمى » — وكان حاضرَ ذلك — لا يقنع بما كان من « النعمان بن بشير » فيقول له : إنه لا يصلح مانرى إلا الغَشم، وإن هذا الذى أنت عليه رأى المستضعفين.

وكذلك كان بنو أمية — وكان أحلاف بنى أمية — يخافون صغار الأمور، كما يخشَوْن كبارها، ولا يرْحمون خصمهم على الصغيرة كما لا يَرحمونه على الكبيرة، ويرون أن استئصال الداء حين يبدو، خيرٌ من الرفق به علاجاً حتى لا يستعصى.

لهذا شمّر « عبد الله بن مُسلم » يكتب إلى « يزيد » يخبره بمقدم « مسلم بن عقيل » الكوفةَ ومُبايعة الناس له. ويقول له فى حزم : إن كان لك فى الكوفة حاجة فابعث إليها رجلاً قويا

ينفذ أمرك ، و يعمل مثل عملك فى عدوك ؛ فإن « النعمان » رجل ضعيف ، أو هو يتضعّف .

وكما كتب الشيعة إلى « الحسين » كتاباً بعد كتاب ، كتب أنصار « يزيد » إليه كتاباً بعد كتاب ، وكان أول الكاتبين إليه « عبد الله بن مسلم » هذا ، ثم تلاه غيره ، فكتب إليه « عمارة بن الوليد بن عقبة » . وكتب إليه « عمر بن سعد بن أبى وقاص » ، كما كتب إليه غيرهما ، كلهم يُحذّر وينذر .

* * *

وكما كان « الحسين » عجلاً ليناجز خصمه ، كان « يزيد » عجلاً ليقضى على خصمه ، وأولهما يسعى إلى ملك يريد أن يجمع أسبابه بين يديه ؛ وثانيهما يريد أن يحتفظ بملك قد اجتمعت أسبابه لديه : وأولهما يسعى لأمل لم يذُقه ، وثانيهما يُدافع عن أمل ذاقه ؛ لذلك كان ثانيهما أعنف على خصمه ، وأشدّ قسوة للدفاع عن حقه .

وسرعان ما استبدل « يزيد » بـ « النعمان بن بشير » الناسك الحليم رجلاً لم يدخل النسكُ قلبَه ، ولم يَعمر الحلمُ وجدانه هو : « عبيد الله بن زياد » ، ولم يكن بعيدا عن قرابته ، فقد

استلحق « أبو سفيان » أباه « زيادا » ودسه على بنى أمية .

* * *

ولم يُمهل « يزيد » « عبيد الله » يوما أو بعض يوم ، وإنما أمره أن يخرج إلى الكوفة من غده ، لا يترك « مسلم بن عقيل » إلا مقتولا أو مَنفيًّا .

وكأنى بأهل الكوفة الذين استيقظوا على موت « معاوية » ، وولاية « يزيد » ، وخروج « الحسين » ونفر معه عليه ؛ كادوا أن يعودوا إلى سُباتهم حين علموا بمقدم « عبيدالله بن زياد » إليهم .

فلقد حسبوا اللقمة سائغة ، وأن خصمهم قد هان فهبوا ، ولقد رأوا « الحسين » يُقدم إليهم رِجلاً ويؤخر أخرى ، ففتروا شيئا ، ولقد لقوا رسول « الحسين » إليهم « مسلم بن عقيل » وليس فيـــه الغيرة على ما يحمل ؛ فتراخوا ، ولقد ساءهم ألا يَقْدُم إليهم « الحسين » فيخوض بهم المعركة فى حينها لا يضن بنفسه ، فلمـا عزّ عنهم شيئا بدأ نفرٌ منهم يَضن بنفسه ، ولما رأوا أمرهم قد افتضح ، وأن خصمهم قد تنبه لهم تخاذلوا ، وحين علموا أن « عبيدالله بن زياد » هو واليهم الجديد تلبثوا يتدبرون حياتهم .

لهذا كان خروج « الحسين » إليهم بعد هذا ليس من التدبير في شيء ؛ فلقــــد كتب « الحسين » إلى أشراف البصرة كتابا يحفزهم إليه ليقيموا الدين للناس بعد أن زعزع أركانه بنو أمية .

كتب بذلك إلى « مالك بن مسمع البكرى » ، وإلى « الأحنف ابن قيس » ، وإلى « المنذر بن الجارود » ، وإلى « مسعود بن عمرو » وإلى « قيس بن الهيثم » ، وإلى « عمر بن عبيد الله بن معمر » ، وإلى غيرهم .

فكلهم تلقى كتابه يكتمه في قلبه ، لا تتحرك له يد ، ولا ينطلق به لسان ، خَوَراً وضعفا .

ويبلغ الخور والضعف بواحد منهم ، وهو : « المنذر بن الجارود » غايته ، فإذا هو يسعى بالكتاب وحامله إلى « ابن زياد » ، وهو يظن أن « ابن زياد » قد دسّه عليه ليخبر ما عنده ، فيمزق « ابن زياد » الكتاب ويضرب عُنق حامله .

ولربما كان خلف « المنذر بن الجارود » غيره من إخوان له بلغ بهم الخوف مبلغه ، إلا أنهم استمسكوا شيئا ولم يفعلوا .

ثم يقف « ابن زياد » بين أهل البصرة يخطبهم ، وهو يريد أن

يسمع أهل الكوفة، وهو يقول : يأهل البصرة : إن أمير المؤمنين قد ولاّني الكوفة ، وأنا غادٍ إليهم بالغداة ؛ وقد استخلفت عليكم أخى « عثمان بن زياد » ، فإياكم والخلافَ والإرجاف ؛ فوالله لئن بلغنى عن رجل منكم خلاف لأقتلنّه وعريفه ووليّه ، ولآخذن الأدنى بالأقصى حتى تستقيموا ، ولا يكون فيكم مخالف ولا مُشاقّ ، وأنا « ابن زياد » أشبهتُه مِن بين من وطىءِ الحصى ، فلم ينتزعنى شبه خال ولا ابن عم .

ولقد دوّت كلمة « ابن زياد » فى آذان أهل البصرة فوعتها ووجلتْ لها قلوبهم ، وهوّن عليهم الأمر شيئاً أنهُ غدا عنهم راحل ، وليس « عثمان » كعبيد الله ، كما دَوّى صداها فى آذان أهل الكوفة فوعتها ووجلت لها قلوبهم ، وصعّب عليهم الأمر شيئاً أنه قادم إليهم فملاقيهم ومقيم بينهم .

* * *

وما تكاد قدَمَا « عبيد الله بن زياد » تطأ أرض الكوفة حتى تطأ المنبر فإذا هو واقف عليه يقول : أما بعد . فإن أمير المؤمنين ولاّنى مصركم وثغركم وفيئكم ، وأمرنى بإنصاف

مظلومكم وإعطاء محرومكم ، وبالإحسان إلى سامعكم ومُطيعكم ، وبالشدّة على مُريبكم وعاصيكم . وأنا مُتّبع فيكم أمره ومنفّذ فيكم عهده ، فأنا لمُحسنكم كالوالد البرّ ، ولمُطيعكم كالأخ الشقيق ، وبسيفي وسوطي على من ترك أمري وخالف عهدي ، فليُبق امرؤٌ على نفسه .

ما زادا على ذلك ، ثم نزل .

* * *

عرف « عبيد الله بن زياد » أن القلوب منها ما يُباع ويُشترى ، ففتح لها هذا الباب على مصراعيه ، يدخل منه الطامع في جاه بني أمية ونشبهم .

وعرف « عبيد الله بن زياد » أن من القلوب ما يخاف ويخشى ، فلوّح لها بعُنفه وبطشه غير مكذوب في هذا التلويح ، فقد سبق إليهم ما فعله في البصرة مع هذا الرجل الذي ساقه إليه « المنذر ابن الجارود » .

وعرف « عبيد الله بن زياد » أن هناك نفرا بين هؤلاء وهؤلاء لا يضمهم إليه طمع ، ولا يُخيفهم منه بأس ، فبعث إليهم

رِجاله يأخذونهم أخذاً شديداً ، وألزم العُرفاء أن يُحصوا له الناس على ما تُضمر نفوسهم وتُخفى ، وهو يقول لهم : مَن كتب إلىّ فقد برىء ، ومن لم يكتب لنا أحدا فليضمن لنا ما فى عرافته ألاّ يُخالفنا منهم مُخالف ، وألا يبغى علينا منهم باغ . فمن لم يفعل فبرئت منه الذمة وحلالٌ لنا دمه وماله . وأيما عَريف وجد فى عرافته مِن بُغية أمير المؤمنين أحدٌ لم يَرفعه إلينا صُلب على باب داره

* * *

ويسمع « مسلم بن عقيل » بمقالة « ابن زياد » فيهتز لها قلبه ، ويُحس أن صاحب الدار الذى يؤويه لا شك خائف فضائق به ، فيخرج عنه إلى دار « هانىء بن عروة المرادى » يطرُق عليه بابه ، ويُدرك « هانىء » مَن القادم عليه ، فيخرج لا ليرحّب به ، ويهش له ، ولكنّه يلقاه عابسا وهو يقول له : لقد كلّفتنى شططا ، ولولا دخولك دارى لأحببت أن تنصرف عنّى . غير أنه يأخذنى من ذلك ذمام ، أدخل .

ولقد مرّ بك ما كان من « المنذر » بالبصرة ، وهأنت ترى

ما كان من « هانىء » بالكوفة : حادثتان إن دلت أولاهما على حذر ليس معه تنكّر للعهد ، فقد دلّت ثانيهما على خوف يكاد يحمل التنكّر للعهد .

وإلى هذه الحال أو قريب منها يكاد ينتهى أمر الشيعة ، فلقد انصرفوا عن الجهر بما كانوا يقولون إلى الإسرار به ، وعن الإعلان بما يريدون إلى التخفّى فيه .

و « عبيد الله بن زياد » جاد فى إثر « مسلم بن عقيل » يتعقبه ، وأصبح هذا الذى نزل الكوفة منذ قليل ليعرف خبر القوم ، ويكتب للحُسين ليَقْدم ، قد حَبس نفسه فى دار « هانىء » ، لايخرج منها ولا يعلم من أمر القوم الذين سيكتب عنهم إلا القليل الذى يصل إليه عَفْواً ، ومما لا يُغنى « الحسين » شيئا ، كما أصبح « مسلم » فى مخبئه لا يُغنى عن أمر الشيعة شيئا . وعاد الشيعة كما كانوا أولا ، لا هم إلى حرب فيستعدون ، ولا إلى سلم فيهدءون ، ولكن كانوا بين هــذه وتلك يتخطفهم « ابن زياد » واحدا بعد الآخر .

ويحس « عبيد الله بن زياد » من مجىء « هانىء » ؛ دلّه عليه

رجل كان له عينا عليه ، فيطلب « ابن زياد » « هانئا » إليه ليلقاه ، فيعتذر أولا ، ثم يلبي ثانيا « فيقول له « ابن زياد » : « جئت بمسلم فأدخلته دارك وجمعت له السلاح وظننت أن ذلك يخفى .

ويقول له « هانىء » : اسمع منى وصدقنى ، فوالله لا أكذبك . والله ما دعوته ولا علمت بشىء من أمره حتى رأيته جالساً على بابى يسألنى النزول على ، فاستحييت من رده ، ولزمنى من ذلك ذمام ، فأدخلته دارى وضفته ، وقد كان من أمره الذى بلغك . فإن شئت أعطيت الآن موثقا تطمئن به ، ورهينة تكون فى يدك ، حتى أنطلق وأخرجه من دارى وأعود إليك .

فيقول له « ابن زياد » : لا والله ، لا تفارقنى أبدا حتى تأتينى به .

ويثور فى نفس « هانىء » خلق عربى ، لا ينزل عنه عربى أبدا . يستوى فى ذلك أكان المدافع عنه عدوا أو صديقا ، هذا الخلق هو ماشاع عن العرب وأثر عنهم ، وضربت به الأمثال ، ألا وهو إكرام الضيف وحمايته والدفاع عنه ، من أجل هذا الخلق

وحده؟ لامن أجل الرأى الذى رَبط ما بين « هانىء » و « مسلم ابن عقيل » ؛ والذى من أجله ثار الشيعة وكتبوا للحسين ، والذى من أجله أرسل « الحسين » « مسلم بن عقيل » ؟ من أجل هذا الخلق وحـــده قال « هانىء » لابن زياد : لا آتيك بضيفى تقتله أبدا .

وهأنت ترى مرة ثانية كيف ذاب حماس الشيعة أمام تهديد « ابن زياد » وشدته ، ولم يكن « هانىء » إلا واحدا منهم ؛ بل كان كبيراً من كبرائهم ، يخطو فى إثر خطوه مئات ، ويعنف بعنفه مئات ، ويلين بلينه مئات .

وكنا نحبها كلمة أخرى تجرى على لسان « هانىء » قبل كلمته هذه؛ أو مع كلمته هذه كنّا نحبه أن يكون شجاعا لرأيه وما يَدين به كما كان شجاعا لعادته تلك التى نَشأ عليها ، ولكنه نَسى هذا الرأى حين أحس المتلفة فى ظله ، وذكر هـــذا الخلق لأنه خاف أن يترك الحياة بسبّة الأتدخل عليه وعلى أبنائه ، فلا يزالون يُعيَّرون بها إلى آخر الدهر .

* * *

ولعلنا نفيد من حديث « هانئ » جديدا قد لا يكون توكيدا ، ولكنه ظن يثيره ظن : هو أن الرأي الذى ألف الشيعة بحبله لم يكن قد بلغ بعد أن ينزل من قلوبهم منزلة العقيدة الدينية التى دخلت عليهم قلوبهم ، فملأتها ملئا لا متسع فيها لغيرها ، فرموا بأنفسهم إلى الموت لا يخشونه فى سبيلها ، واستعذبوه على مرارته وهشوا للقائه ، يذكرون حقا يغبطهم معه أنهم سوف يلقون ربهم عليه .

ولعلنا نفيد من حديث « هانئ » جديدا آخر ، قد يكون توكيدا وليس ظنا يثيره ظن ، هو أن هذا النزاع الذى جمع الشيعة على « الحسين » كان مردّه إلى ذلك الكره الذى حمله غير القرشيين للقرشيين ، وقد غنموا قهر الأمويين للهاشميين على حقهم ، ليجعلوا منها فرصتهم للوثوب بالأمويين ؛ من أجل ذلك التفوا بالحسين ، كما التفوا بالحسن ، وكما التفوا بعلىّ ، وهم فى كل مرة التفوا فيها لم يكونوا يصدرون عن وعى يشبه وعى العقيدة ؛ لهذا سرعان ما كانوا ينفضّون إن أحسوا اليأس أو أنذروا بالشدة .

هكذا بدأ الرأى الشيعى ؛ بدأ رأيا سياسيا ، ثم كان رأيا دينيا فيما بعد .

ولقد ثار الجدل بين « ابن زياد » و « هانىء »؛ لا يذكر « هانىء » إلاّ هذا الذى ذكره من قبل ، وهو حق الضيف عليه ؛ ولا يذكر « ابن زياد » إلاّ أن يُسلم « هانىء » « مسلم ابن عقيل» إليه .

ويدخل بينهما رجل من القوم كان حاضرهما ؛ ليهون الأمر على « هانىء » ويحقق لابن زياد ما يبغى ،فيخلو بـ« هانىء» يقول له :

يا هانىء : أنشدك الله أن تقتُل نفسك ، وتدخل البلاء على قومك ؛ إن هذا الرجل ابن عم القوم — يعنى بنى أمية — وليسوا بقاتليه ولا ضاربيه ، فادفعه إليه فليس عليك مخزاة ولا منقصة ، إنما تدفعه إلى السلطان .

فيقول له هانىء : بلى والله ، إن علىّ فى ذلك خزياً وعاراً ، لا أدفع ضيفى وأنا صحيح شديد كثير الأعوان ، ووالله لو كنت واحداً ليس لى ناصر،لم أدفعه حتى أموت دونه .

وهكذا يسجل « هانىء » على نفسه مرة ثانية نِسْيانه

رأيه الذى شارك فيه وهيج له ، مع إقرار منه بأنه كثير العون والناصر ، ولكنه لا يثيرهم ولا يثورون معه لهذا الرأى ، وإنما يثيرهم ويثورون معه لغيره مما هو دون هذا الرأى .

* * *

ولكن للقصة بقية تكشف لك عن نفوس هؤلاء الشيعة من أهل الكوفة ، كما كشف لك أولها عن نفس « هانىء » :

فلقد وكل « ابن زياد » بهانىء مَن ضربه على وجهه حتى كسر أنفه ، ونثر لحم خدَّيه وجبينه على لحيته ، وملأ حجره دما .

فتقبل « مذحج » شيعة « هانىء » وعليها « عمرو بن الحجاج » فتحيط بقصر « ابن زياد » ، يظنون أن « هانئا » قد قُتل ، فيُطل عليهم « شريح القاضى » يُخبرهم أن صاحبهم لم يُقتل ، فينقلبوا راجعين وهم يقولون :

الحمد لله إذ لم يقتل ! ...

فهم لم يثوروا لما فعل «ابن زياد » بـ«هانىء» يُسيئه على إيوائه « مسلم بن عقيل » ، وإنما ثاروا حين ظنوا أن « ابن زياد » قتل « هانئا » .

يُقرون لابن زياد أن ينكل بـ«هانى»؛ ليَستخلص منه « مسلم ابن عقيل » ، ولا يُقرونه على أنه يقتل على هذه سيدهم ، وكأنهم أحسّوا أن سيدهم لا بد مستاين مع تنكيل « ابن زياد » فتركوه يألم ليَستجيب ، وأن « ابن زياد » لن يقتُل سيدهم لهذه فتركوه بين يديه يشتّد به حتى يجيب .

ثم إن للقصة بقية أخرى لا يفوتك أن تعرفها :

يروون أن الخبر بلغ « مسلم بن عقيل » فخرج من مكمنه يدعو أصحابه إليه ، فإذا هم ثمانية عشر ألفا ، كلهم قد بايعه ، من « كندة » ، ومن « مذحج » ، ومن « أسد » ، ومن « تميم » ، ومن « هوازن » . ويخرج بهم نحو قصر « ابن زياد » .

ويروون أن « ابن زياد » لما بلغه إقبال « مسلم » إليه فيمن اجتمع حوله تحرّز فى قصره وأغلق الباب عليه ، ليس معه فى القصر إلا ثلاثون رجلا من الشُّرطة ، وعشرون رجلا من من الأشراف ، هذا غير أهل بيته ومواليه .

ويَروون أن « ابن زياد » كان فيمن معه رجال من أشراف « كندة » و« مذحج » و « تميم » ، فأمرهم أن يخرج كل واحد منهم إلى مَن

مع « مسلم بن عقيل » من قبيلته يخوّفهم ويخذّلهم

كما أمر مَن عنده من الأشراف أن يطلوا على الناس من القصر فيُمنّوا أهل الطاعة ، ويخوّفوا أهل المعصية .

فإذا الناس كلهم ، الذين أجتمعوا حول « مسلم بن عقيل » قد تفرقوا عنه ، وإذا « ابن عقيل » ليس معه غير ثلاثين رجلا .

وكما اجتمع الشيعة حول « مسلم بن عقيل » تضمّهم إليه كلمة ، افترقوا عنه تفرقهم كلمة ، ولا ندرى ألأن « مسلم بن عقيل » لم يكن الرجل الذى دبروا الثورة من أجله ؟ أم لأنهم لما رأوا صاحبهم ابتعد عنهم ولم يحضرهم ابتعدوا هم عن « مسلم » ولم ينصروه .

أم لأن الشيعة - كما وصفناهم - لم يكونوا يصدرون عن رأى، للأسباب التى قدّمتها من قبل ؟

* * *

ومضى « مسلم بن عقيل » يضرب فى أزقة الكوفة، لا يدرى

أين يذهب ، وإذا هو آخر الأمر أمام باب امرأة من « كندة » ، وكان لها ابنٌ خرج مع الناس، وجلست هي ترقب عودته. فسلَّم عليها « ابن عقيل » ، وطلب منها ماء فسقَتْه وجلس يَستريح . وإذا المرأة تقول له : يا عبدالله ، ألم تشرب ؟ فيقول لها « مسلم » : بلى . فتقول له المرأة : قُم فاذهب إلى أهلك .

ويُطرق « مسلم » والمرأة تقولها ثلاثا وهو لا يبرح ، حتى إذا برمت به اتجهت إليه تقول له فى عُنف : سبحان الله ... إنى لا احل لك الجلوس على بابى .

عندها يخرج « مسلم » عن صمته ويقول للمرأة والأسى يملأ عليه جوانحه : أنا « مسلم بن عقيل » كذبني هؤلاء القوم وغرّونى .

وترثى له المرأة وترقّ له ، وتدخله دارها وتعرض عليه العشاء فلا يذوق منه شيئا ، ويجىء ابنها ، فيعلم من أمه خبر « مسلم » بعد إلحاح منه عليها ، وتستكتمه أمره ، وتأخذ عليه الأيمان بذلك ؛ فيسكت .

* * *

ويُصبح « ابن زياد » فيرسل فى إثر « مسلم » من يبحث عنه ، ويشتد فى ذلك ، ولا يَقوى هذا الابن الذى آوت أُمه « مسلم ابن عقيل » على أن يكتم ، ويخاف نكال « ابن زياد » به إن هو رآه عند أُمه وفى بيته ، فيسعى هو إلى « ابن زياد » يُخبره خبره ، وإذا « مسلم » بين يدى « ابن زياد » .

ولكن « مسلما » لم يُسلم نفسه إلاّ بعد قتال بينه وبين من اقتحموا عليه الدار ليأخذوه ، وإلا بعد أن قال له « محمد ابن الأشعث » : لك الأمان فلا تقتل نفسك ، وإلاّ بعد أن أثخن بالجراح وعجز عن القتال .

وأتى القوم ببغلة فحملوه عليها بعد أن انتزعوا منه سيفه ، فإذا عيناه تدمعان ، وإذا هو يقول : هذا أول الغدر .

ويتجه إليه رجل من القوم وهو يقول له : « مَن يطلب مثل الذى تطلب ؛ إذا نزل به مثلُ الذى نزل بك لم يبك ! ... »

فيقول له « مسلم » : « ما أبكى لنفسى ، ولكن أبكى للمنقلبين إليكم ، أبكى للحُسين وآل الحُسين ! ... »

* * *

وقبل أن ننتقل بك إلى أخبار « الحسين » نحب أن نفرغ من حديث « مسلم » .

فقد قدم « محمد بن الأشعث » بـ « مسلم » على « ابن زياد » وأخبره خبره ، وذكر له أمانه له .

وهنا تصبح الكلمة لـ « ابن زياد » بعد أن ملك ، يزيده هذا الملك عنفا إلى عنفه ، أو قل يردّه الملك إلى عنفه المعهود ، فيقول لابن الأشعث : ما أنت والأمان ، ما أرسلناك لتؤمنه ، إنما أرسلناك لتأتينا به .

فيسكت « ابن الأشعث » على استحياء لا يقول شيئاً .

وتمضى القصة تكشف لك عن قسوة الإنسان بأخيه ، لا ترده عنها رحمة ولا تثنيه قرابة .

فيحكون أن « مسلم بن عقيل » اشتد به العطش ، وقد طال انتظاره على باب قصر « ابن زياد » ، ورأى جرة فيها ماء بارد . فقال : اسقونى من هذا الماء ... فحال بينه وبينه رجل من القوم لاضير عليك من أن تعرف اسمه ، فلقد كان « مسلم ابن عمرو الباهلى » ولقد رأى أن يضيف إلى عناء « مسلم بن عقيل » عناء

آخر، فقال له وهـــو يتهكم به : أتراها؟ .. ما أبردها ؟ .. والله لاتذوق منها قطرة حتى تذوق الجحيم فى نار جهنم .

ويدخل « مسلم » على « ابن زياد » فيقال له : ألا تسلّم على الأمير ؟ .

فيقول « مسلم » : إن كان يريد قتلى فما سلامى عليه ، وإن كان لايريد قتلى فلَـيكثرن تسليمى عليه .

فيقول له « ابن زياد » : لعمرى لتقتلن .

ولم يَرَ « ابن زياد » أنه قد شفى نفسه بهذه الكلمة، ولا بلغ بها من نفس « مسلم » ما أراد ، فيقول : قتلنى الله إن لم أقتلك قتلة لم يُقتلها أحد فى الإسلام .

وتُثير هذه الكلمة «مسلم بن عقيل » فيثور بـ « ابن زياد » ، فقد عرف ما ينتظره على يديه ، فما عليه أن يَشفى نفسه كما شفى « ابن زياد » نفسه ، فالتفت إليه وهو يقول له :

أما إنك أحق من أحدث فى الإسلام ما ليس فيه ، أما إنك لا تدع سوء القتلة ، وقبح المثلة ، وخبث السيرة ، ولؤم الغلبة ، ولا أحد من الناس أحق بها منك .

هنالم يملك « ابن زياد » إلا أن يشتمه، ويشتم « الحسين »، ويشتم « عليا » ، ويشتم « عقيلا » .

ثم سرعان ما أمر بمسلم فأصعد فوق القصر لتضرب رقبته ، وليتبعوا رأسه جسده و « مسلم » لا يكف عن التسبيح والاستغفار .

* * *

ويطمع « ابن زياد » فى أخرى بعد أن مرت الأولى بسلام — أعنى قتل « مسلم » — ليجمع القلوب على رهبته . ويزيدها من خشيته ، فيأمر بـ « بهانىء » فيخرج به إلى السوق فيضرب عنقه ، يتولى ذلك منهم مولى تركى لابن زياد .

ثم يجمع « ابن زياد » رأس « مسلم » إلى رأس « هانى » ويبعث بهما إلى « يزيد » ليشيع فى غير الكوفة ماشاع فى الكوفة ، وليخشاه مع أهل الكوفة من هم فى غير الكوفة .

وما درى بالذى فعل أنه غرس فى قلوب أهل الكوفة وقلوب غير أهل الكوفة ـ إلى جانب هذه الخشية ـ موجدة مضت الأيام نزعزع جذور الأولى ، وتوصل لجذور الثانية ، حتى كانت الفتنة الصاخبة بالأمويين التى سنحدثك حديثها بعد حين .

ولكن أين كانت « مذجح » ، وأين كان « عمرو بن الحجاج » الذى ثار منذ وقت قريب حين بلغه مقتل « هانىء » ؟

وأين هؤلاء الثمانية عشر ألفا الذين تحركوا مع « مسلم » منذ قليل ؟

لقد ردُّوا جميعا على أعقابهم لا تضطرب أيديهم بالسيوف ، ولكن تضطرب قلوبهم بالنِّقمة والسخط .

لقد كان « بن زيد » قليلا بجنده ، ولكنه كان كثيرا بالأشراف الذين طمعوا فى جاه بنى أمية وتشبهم ، ففتوا فى عضد الناس .

ولقد كان « ابن زياد » عنيفا لايرعى إلاّ ولا ذِمة ، ففت عُنفه فى عَضد فريق آخر من النـــاس ، وهم الذين لم يكن الذى جمعهم قد بلغ مبلغ العقيدة فى قلوبهم ، فاستكانوا فى يسر يســير .

وخلا الجو لابن زياد يمضى فى الطريق إلى نهايته ، يشجعه « يزيد » على أن يفعل ، وهما يظنان أنهما يثبتان ملكا ، وما حسبا أنهما يغرسان حقدا لا يثبت معه ملك ، وإن بدا قويا ، وماقدرا أن السيف الذى يحمى الملك إلى انثلام ، وأن القلوب التى

نحوط الملك إلى غير دوام .

ولكن أنّى للأمويين أن يَستبدلوا بسياسة العنف سياسةَ اللين والرّفق ؟ ذلك مالم يكن لهم إليه سبيل ؛ فالأمر اغتصاب وسبيل ذلك إلى الأقوى ، ولم يكن الأمر شورى مرده إلى الشعب يحكم لمن يَرضى .

وهكذا كانت سياسة الأمويين سياسة عنيفة عنفا لا محيد لهم عنه ، وكانت مقاومة الهاشميين هى الوسيلة التى لابد لهم منها . وكان لا مفر للشعب من أن يكون بين هؤلاء وهؤلاء يشقى بالقتل ، ويشقى بالفرقة ، لا تستقيم له حال إلا فى القليل .

* * *

١٣

والآن نعود بك إلى حديث « الحسين »؛ فقد كتب إليه « مسلم بن عقيل » قبل أن يلقى حتفه ، وحين اجتمع إليه هؤلاء النفر الثمانية عشر ألفا ، وحين وقع « هانىء » فى يد « ابن زياد » ، يخبره بأن الفرصة مواتية ، وما عليه إلا أن يَتقصد قَصْد الكوفة .

ولقد أخطأ « مسلم » كما أخطأ « الحسين » من قبله : أخطأ « مسلم » لأنه نظر إلى الناس فى عديدهم ، ولم ينظر إليهم فى قُلوبهم .

ولقد أخطأ « الحسين » حين لم يعجل إلى أهل الكوفة قبل أن ينزل بهم « ابن زياد » ، إذ كان الناس على « النعمان بن بشير » أجرأ ، وكانوا مع « ابن زياد » أضعف ، وإذ كان « النعمان » رفيقا يطمع الناس فيه ، ولم يكن كـ« ابن زياد » يخاف الناس منه ، وإذ كان « النعمان » أعجز من أن يضم الأشراف حوله بالرغبة والرهبة ، على حين ضم « ابن زياد » الأشراف إليه

رغبة ورهبــــة .

وكذلك أخطأ « الحسين » حين قدر لخَطوه أولا ثم لم يقدر لخطوه ثانيا ، ولكنه كان بعيدا عن موطن الفتنة ، وكان « مسلم » رسوله إليها ، فله العُذر إن استجاب .

ولقد أدرك « مسلم » وهو يساق إلى الموت ما جنت رسالته على « الحسين » ، فخــــلا بابن الأشعث — وهو الذى أمّنه كما تقدم لك — يقول له : إنى أراك ستعجز عن أمانِى ، فهل تستطيع أن تبعث من عندك رجــــلا يخبر « الحسين » بحالى ويقول له عنى : ليرجع بأهل بيته ولا يَغرّه أهل الكوفة ، فإنهم أصحاب أبيه الذين كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل ؟.

وأدرك ذلك مرة ثانية ، وهو بين يدى « ابن زياد » وقد حلف ليقتلنه ، فطلب منه أن يدعه يُوصى إلى بعض قومه ، فخلا « مسلم » بـ « عمر بن سعد » يقول له : إن بينى وبينك قرابة ، ولى إليك حاجة ، وهى سرّ .

وهنا يحجم « عمر بن سعد » عن أن يسمع من « مسلم » ؛

فهو فى موقفه هـــذا أعجز من أن يحتمل أمانة السر ، و « ابن زياد » حاضر وسامع ، فإما أن يكتمه عن « ابن زياد » فيعرّض نفسه للتلف ، وإما أن ينبىء به « ابن زياد » فيكون قد خان أمانته ، وما هى بالهينـــة على رجل ذى مروءة كـ « عمر بن سعد » .

ولكن « ابن زياد » كان فى هذه المرة رفيقا ، أو قل داهية ماكرا ، فهو لم يُرد أن يمضى « مسلم » بهذا السر الذى قد يُفيد هو منه ، فما عليه أن يرخى له ليقول ، وما عليه بعد ذلك إلا أن يشتد بـ «عمر بن سعد» حتى يقول : لهذا قال « ابن زياد » لـ « عمر بن سعد : لا تمتنع من حاجة ابن عمك ! ...

عندها لم يَقْوَ « عمر بن سعد » أن يرفض ، وإلا كان مقصرا فى شأن ابن عمه ، مخالفا عن أمر « ابن زياد » فاختلى بمسلم يسمع منه ، وإذا « مسلم » يقول له : إن علىّ بالكوفة دينـــاً استدنته منذ قدمت الكوفة : سبعمائة درهم ، فاقضها عنى .

ووجده « عمر بن سعد » سراً هيّنا ليس عليه بأسٌ إن

كتمه ، فاطمأن .

وكان يظن « مسلم بن عقيل » قد انتهى عند هذه ، فإذا هو يقول له : وانظر جثتى فاستوهبها فوارها .

ويعرف « عمر بن سعد » — وكان رجلا ذا بصر — أن حقد « ابن زياد » أبعد من أن يعرف مثله مداه ، وأنه أضعف من أن يدخل بين « ابن زياد » وبين ما يريد ، فيتململ . « عمر » ولا يدعه « مسلم بن عقيل » يقول شيئاً ؛ بل يمضى يقول : وابعث إلى « الحسين » من يرده .

هنا يفيق « عمر بن سعد » على ما خشيه أولا ، ويجد أمانته فى كفة وحياته فى كفة أخرى ، ولكنه رأى أنه إن هو قام بأمانتـــه لم يغن شيئا عن « الحسين » ولا عن نفسه . وإن هو خانها وصارح « ابن زياد » بما قال « مسلم » فقد يحفظ على « الحسين » حياته وعلى نفسه حياتها .

وقد كان ما قدر « عمر بن سعد » وإن لم يكن كل ما قدَّر كان ، فما إن صارح « ابن زياد » بما قال « مسلم » حتى قال « ابن زياد » لمسلم : لا يخونك الأمين ، ولكن قد

يؤتمن الخائن . أما مالك فهو لك تصنع به ماشئت . وأما «الحسين»
فإن لم يُرِدنا لم نرده ، وإن أرادنا لم نُكفَّ عنه ، وأما جثتك
فإنا إذا قتلناك لا نبالي ما يُصنع بها .

* * *

١٤

إذن لم يكتب « عمر بن سعد » إلى « الحسين » ، كما طلب منه « مسلم » ، ولكن كتب إليه « ابن الأشعث » كما أراد منه «مسلم» ويلقى رسول « ابن الأشعث » « الحسين » فيخبره فلا يثنيه هذا ، وهو يظن أن إجابة « مسلم » فيما كتب إليه أولا أولى به .

وكأنى بالحسين لم يكن عليه غير أن يُجيب ، وإلاّ ففيم كان امتناعه على « يزيد » بالبيعة ؟ وفيم كان إرساله « مسلم بن عقيل » قبله يتحسس له ؟ وفيم كانت هذه الشائعـــات التى ملأت عليه الآفاق ؟ ... وفيم كان تعريضه أنصـاره يلقون مالقوا وهو عنهم بعيد ؟ ...

إلا أنه لو استجاب للثانيـــة لا تُّهم فى عزمه ، ولاتُّهم فى شجاعته ، ولقضى على ما يملك فى القلوب ، ولانفض الناس من حوله إلى آخر الدهر . فما عليه إذا مضى، ولكنه ملوم إن قعد .

أو ليس الذى خرج له حقا ليس له وحـــده ؟ ولكنه للبيت الذى ينتمى إليه ، وإن هو ارتد واستكان ، كما ارتد أخوه

« الحسن » فتّ في عضد آله ، وفتّ في عضد الناس من حول آله ولكنه إن مضى على وجهه فلا يبعد أن يظفر بحقه ، أو يموت فيترك آله على هذا الحق ، والناس من حولهم لا يرجعون .

على هذا صمم «الحسين» ، وبهذا أجاب رسول «ابن الأشعث» إليه يقول له : كل ما قُدر نازل ، وعند الله نحتسب أنفسنا .

٭ ٭ ٭

ولكنه قد كان إلى جنب « الحسين » بمكة قوم مُشيرون ناصحون ، يعزّ عليهم أن يمضى « الحسين » إلى وجه لا يؤمَن عليه فيه التلف .

فيأتيه « عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام » ، فيقول له : « إنى أتيتك لحاجة أريد ذكرها نصيحة لك ، فإن كنت ترى أنك مُستنصحى قلتها وأدّيت ما علىّ من الحق فيها ، وإن ظننتَ أنك غير مستنصحى كففت عما أريد »

فيقول له « الحسين » : « قل ، فوالله ما أستغشك ، وما أظنك بشىء من الهوى » .

فيقول له « عمر بن عبد الرحمن » : « قد بلغنى أنك تريد

العراق ، وإنى مُشفق عليك ، إنك تأتى بلدا فيه عُماله وأمراؤه ومعهم بيوت الأموال ؛ وإنما الناس عبيد الدينار والدرهم ، فلا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره ، ومن أنت أحب إليه ممن يقاتلك معه . »

فيقول له «الحسين» : « جزاك الله خيرا يابن عم ، فقد علمت أنك مشيت بنصح ، وتكلمت بعقل ، وقد آخذ برأيك أو أتركه فأنت عندى أحمد مُشير وأنصح ناصح .

* * *

ويأتيه « عبد الله بن عباس » فيقول له : « قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق ، فبيِّن لى ماأنت صانع ؟ ... »

فيقول له « الحسين » : قد أجمعت السير فى أحد يومَى هذين إن شاء الله تعالى .

فيقول له « ابن عباس » : فإنى أعيذك بالله من ذلك ، خبِّرنى — رحمك الله — : أتسير إلى قوم قتلوا أميرهم ، وضبطوا بلادهم ، ونفوا عدوهم ؟ ! فإن كانوا فعلوا ذلك فَسِرْ إليهم ، وإن كانوا إنما دعَوك إليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم ، وعُمالهم تجبى

بلادهم ؛ - فإنما دعوك إلى الحرب ، ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك ، ويُستنفروا إليك ، فيكونوا أشد الناس عليك .

فيقول الحسين : فإنى أستخير الله وأنظر ما يكون .

ويأتيه « ابن الزبير » فيحدثه حديثا غير حديث هذين اللذين سبقاه ، يحدثه حديثا يحفزه شيئا ويرُده شيئا ، فيقول له : ما أدرى كيف تركنا هؤلاء القوم وقد كففنا عنهم ونحن أبناء المهاجرين ، ووُلاة هذا الأمر ، خبرنى ما تريد أن تصنع ؟

فيقول له الحسين : لقد حدثت نفسى بإتيانى الكوفة ، ولقد كتبت إلى شيعتى بها وأشراف الناس ، وأستخير الله .

فيقول له ابن الزبير : أما لو كان لى بها مثل شيعتك ما عدلتُ عنها .

و « ابن الزبير » ذو غرض ؛ يريد أن يبعد « الحسين » عن مكة ليخلو له الجو بها ، وكأنه أحس ذلك فى وجه « الحسين » وخشى أن « يتهم فيما قال ، فعاد يقول : لو أقمتَ بالحجاز ثم أردت الأمر ها هنا ما خالفنا عليك ، وساعدناك وبايعناك ونصحنا لك .

وكأنه أراد أن يطمئنّ ما « الحسين » فاعل ، وأنصت يستمع إلى « الحسين » يجيب جوابا ما كان أحرصه على أن يبلغه ، فإذا « الحسين » يقـــول : « إن أبى حدثنى أن لها كبشا ، به تستحل حرمتها ، فما أحب أن أكون ذلك الكبش » .

وهنا يطمئن « ابن الزبير » أن « الحسين » خارج لا محالة ، وكأنه أراد أن يضم إلى هـذا المغنم الذى وقع له مغنما آخر فقال له : إن شئت تولينى أنا الأمر ، فتطاع ولا تعصى .

ولكن « الحسين » كان أدرى بما يريد « ابن الزبير » ، كان « ابن الزبير » يريد أن يكون صاحب بعض الأمر حيـاة « الحسين » ، وصاحبه كله إن مات « الحسين » ، وما كان « الحسين » ذا غفلة ، يغلبه « ابن الزبير » على حقه فى هذا اليُسر وتلك السهولة ، فالتفت « الحسين » إلى « ابن الزبير » وهو يقول : ولا أريد هذا أيضا .

* * *

وخرج « ابن الزبير » عن « الحسين » وقد اطمأن إلى شيء ولم يطمئن إلى شيء ، ويلتفت « الحسين » إلى الناس من حوله

يقول لهم : أتدرون ما يقول هذا ؟

فيقول الناس : لا ندرى ، جعلنا الله فداك .

فيقول الحسين : إنه يقول : أقم فى هذا المسجد أجمع لك الناس ، والله لأن أقتل خارجا منها بشبر أحب إلى من أن أقتل فيها ، ولأن أقتل خارجا منها بشبرين أحب من أن أُقتل خارجا منها بشبر . وايم الله لو كنت فى جحر لاستخرجونى حتى يقضُوا بى حاجتهم .

ويطرق « الحسين » ثم يقول : إن هذا — يعنى ابن الزبير — ليس شىء من الدنيا أحبّ إليه من أن أخرج من الحجاز ، وقد علم أن الناس لا يَعدلون بى ، فودّ أنى خرجت حتى يخلو له .

* * *

١٥

لقد علم « الحسين » أن الحجاز يضم حوله أهل الرأى، ولكنه لا يضم حوله أهل الحرب ، ولقد علم « الحسين » أن أهل الرأى لا يغنون فى مثل تلك الفتنة قدر ما يُغنى أهل الحرب ؛ لهذا كان عزمه على أن يخرج إلى العراق ويترك الحجاز ، ثم هو إن كسب العراق بأهل الحرب فسوف يكسب الحجاز بأهل الرأى ، وما عليه أن يُخلِّى الحجاز إلى حين .

ولقد علم أهل « الحسين » أنه ما بقى فى الحجاز فهم ضامنون بحياته شيئا ؛ وإن قل ، وأنه إن خرج إلى العراق فهم متوجّسون أن يُخذل « الحسين » فيفوت عليهم ذلك القليل الذى قد ينمو مع الزمن .

من أجل ذلك عاد إليه « ابن عباس » يقول : إنى أتصبر ولا أصبر ؛ إنى أتخوف عليك فى هذا الوجه الهلاك والاستئصال . إن أهل العراق قومٌ غدر فلا تَقْربهم ، أقم فى هذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز ، فإن كان أهل العراق يُريدونك — كما زعموا — فاكتب إليهم فلْينفوا عاملهم وعدوهم ، ثم اقدم

عليهم ، فإن أبيت إلا أن تخرج فسر إلى اليمن ، فإن بها حصونا وشعابا ، وهى أرض عريضة طويلة ، ولأبيك بها شيعة . وأنت عن الناس فى عزلة ، فتكتب إلى الناس ، وترسل رسلك وتبعث دعاتك ، فإنى أرجو أن يأتيك عند ذلك الذى تحب فى عافية .

فيقول له الحسين : يا بن عم ، إنى والله لأعلم أنك ناصح مشفق ، وقد أزمعت وأجمعت المسير .

* * *

وهكذا ترى الرأى قد اختلفت وجوهه :

فالحسين ينظر إلى الدعوة ولا ينظر إلى نفسه ، لا يرى أن ينكل عن أنصاره وقد أثارهم ، فلا يجدهم بعدُ معه إن حاول أن يُثيرهم .

ويرى أن هذا الأمن الذى ينشدونه له لن يغنى إلا هؤلاء المشيرين من حوله ، يأنسون به حياته وادعين مطمئنين ، ولكنه سوف يفت فى عضد أنصاره ، ويخمد جذوة هذا الحق فى نفوسهم ، كما أخمدتها مهادنة أخيه « الحسن » لمعاوية .

ويرى أن أباه حين ولىّ مقتولا كان خيرا من أخيه حين ولى غير مقتول .

ويرى أن الثورة لا بد لزعيمهـــا من أن يركب الصعب، لا يحتاط حتى يُقتحم مَن بعده على ركوبه ، وأنه إن هو حمل اليسير فيها حملوا هم ما هو أيسر منه ، وانكفئوا لم يحققوا شيئا .

ويرى أنه يدبّر لمن بعده ، فلا عليه أن يمضى هو بالغرم ليكون لمن بعده الغُنم .

وكان « ابن عباس » يرى أن « الحسين » إن فاتهم فقد فات الدعوة من يحمل رايتها .

ويرى أنهم به مُحتمون ؛ فإن هو قُتل هان قتلهم على أعدائهم .

ويرى أن الدعوة لمّـا تستقم فى النفوس ، لمَـا يعلمه عن أهل العراق — وهم أكثر الناس إيمانابها كما يبدو — وأن بقاء الحسين» داعيا فيه ما يكفل لهذه الدعوة الدخول إلى القلوب لتملأها

ويرى أن بقاء « الحسين » لهذه خير له ولهم من ذهابه ، والنفوس لم تتصل بالدعوة اتصالا قوياً .

* * *

١٦

ولكن الأمر سيمضى على ما رأى « الحسين » لا على ما رأى « ابن عباس » ، فلم يجد « ابن عباس » جديداً يثنى به « الحسين » عما رأى ، ولكنه أحب أن يدخل إلى قلبه من باب آخر ، فقال له : إن كنت سائراً فلا تسر بنسائك وصبيتك ، فإنى لخائف أن تُقتل كما قتل عثمان ، ونساؤه وولدُه ينظرون إليه .

ويجد « ابن عباس » هذه لا تحول « الحسين » فيأخذ فى أخرى ويمضى يقول له :

لقد أقررت عين « ابن الزبير » بخُروجك من الحجاز وهو اليوم لا ينظر إليه أحدٌ معك .

فلا يلين له « الحسين » . ويلتفت إليه « ابن عباس » مغضبا ، وكأنه همّ أن يخرج عن القول إلى فعل ، ولكنه قبل أن يفعل أحب أن يتبين أثر ما سوف يفعل فى نفس « الحسين » إن هو فعل . فقال له : والله الذى لا إله إلا هو ، لو أعلم أنى أخذت بشعرك وناصيتك — حتى يجتمع علينا الناس — أطعتنى فأقمت

لفعلت ذلك .

فيجد « الحسين » قد كاد يُنكرها عليه ، فيسكن متخاذلا ، ويقوم عنه وهو يردد : قرّت عينك يا « ابن الزبير » ثم ينشد :

يا لك من قُنبرة بمَعمر خلا لك الجو فبيضى واصفرى

ونقّرى ما شئت أن تُنقرى

لابد يوما أن تصادى فاصبرى

ثم يقول — وكأنه يخاطب ابن الزبير — : هذا الحسين يخرج إلى العراق يخليك والحجاز .

١٧

ويخرج « الحسين » من مكة فى طريقه إلى الكوفة فيمر بالتنعيم ، وهناك يلقى عيراً قد أقبلت من اليمن، بعث بها إلى « يزيد » عامله عليها ، فيأخذها « الحسين » ويقول لأصحاب الإبل : من أحب منكم أن يمضى معنا إلى العراق أوفينا كراءه وأحسنّا صحبته ، ومن أحبّ أن يفارقنا من مكاننا أعطيناه نصيبه من الكراء .

ففارقه منهم أناس فأعطاهم حقهم ، ومضى معه أناس فأعطاهم كراهم وكساهم .

* * *

غرضٌ خرج إليه « الحسين » ولم يملك له أهبة ، فكل ما وقعت عليه يداه من مغنم فهو أهبته إليه ، وعامّة الناس فى ذلك بين يدى فتنة يريدون أن يخرجوا منها إلى مأمن ، يحسبونه هنا فيميلون، ويحسبونه هناك فيمضون، ويغلبهم على أمرهم هذا فينصاعون، ويسوقهم إليه ذاك فيخرجون ؛ لأنهم لم يكن لهم رأى يدبّرونه ، ولا كلمة يجتمعون عليها .

ويمضى «الحسين» بمن معه حتى يبلغ «الصفّاح» فيلقاه الفرزدق الشاعر، وقلبه مع «الحسين»، فدعو له وهو يقول : أعطاك الله سؤالك وأملك فيما تحب .

ويأنس به «الحسين» فيقول يسأله : بيّن لى خبر الناس خلفك .

فيقول الفرزدق : على الخبير وقعت، قلوب الناس معك، وسُيوفهم مع بنى أمية، والقضاء ينزل من السماء، والله يفعل ما يشاء .

ولقد صدق الفرزدق شيئا، وإن كان لم يبلغ الصدق كلّه . فما دخل الإيمان بهذه الدعوة قلوب الناس فاستوعبها، ولو صح لكانت سيوفهم طوع قلوبهم، ولكنه كان إيمانا لمّا يستوعب القلوب، لهذا كانت القلوب ناحيةً والسيوف ناحيةً أخرى .

* * *

ولكن «الحسين» كما قلنا غير راجع، فيقول للفرزدق : صدقت، لله الأمر، يفعل ما يشاء، إن نزل القضاء بما نحب

فنحمد الله على نَعمائه ، وهو المستعان على أداء الشكر ؛ وإن حال القضا دون الرجاء ؛ فلم يعتد من كان الحق نيته والتّقوى سريرته .

* * *

ويمضى « الحسين » فى طريقه فيُدركه ولدا « عبد الله ابن جعفر » : عدن ومحمد ، بكتاب أبيهما إليه يقول له فيه : « أسألك بالله لما انصرفت حين تقرأ كتابى هذا ، فإنى مشفق عليك من هذا الوجه أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك ، وإنك إن هلكت اليوم طُفِىءَ نور الأرض ، فإنك علم المهتدين ، ورجاء المؤمنين ، فلا تعجل بالسير . »

ولا يجتزئ « عبد الله بن جعفر » بهذه ؛ بل يسعى إلى « عمرو بن سعيد بن العاص » ، وكان أميرا ليزيد على الحجاز ، فيقول له : اكتب للحسين كتاباً تجعل له الأمان فيه وتمنّيه فيه البر والصلة ، واسأله الرجوع .

ويستجيب « عمرو » لـ « عبد الله » ويرسل بهذا الذى طلب كتاباً يبعثه إلى الحسين ، يحمله إليه أخوه « يحيى بن سعيد » ، ومعه

« عبد الله بن جعفر ».

ويدركه « يحي بن سعيد » و « عبد الله بن جعفر » ببعض الطريق ، ويقرآن عليه كتاب « عمرو بن سعيد » ، ويجهدان معه ليحملاه على أن يرجع ، فلا يفعل .

فلقد امتلأت نفس « الحسين » بغرضه الذى خرج يسعى إليه ، لم يَعُد يقوى صارف أن يصرفه عنه ، حتى لقد رأى نفسه بين يدى هذا الغرض مأمورة ، يُملى عليها عقله الباطن ، وتوحى إليه الرُّؤى ، وما كان لمثل « الحسين » أن يتنكر لما يُمليه عليه عقله الباطن ، أو أن يخالف عن تلك الرؤيا التى رآها ، فقد رأى أن رسول الله — صلىّ الله عليه وسلم — يأمره بأمر يمضى له ، فمضى لهذا الأمر الذى أمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرجع عنه .

وإن كان لم يُفصح للناس عنه حين سألوه : ما تلك الرؤيا .

فقال : ما حدّثت بها أحداً ، وما أنا بمحدّث بها أحداً حتى ألق ربى .

صدق « الحسين » فيما رأى، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ألهم ، فلقد كان « الحسين » مَسوقاً إلى قضاء الله وقدره، وما هو بمستطيع أن يهرب من قضاء الله وقدره .

* * *

١٨

هذا ، و « الحسين » لمّا يبلغه مقتل ابن عمه « مسلم بن عقيل » ولما يبلغه مقتل « هانئ » .

أما ثانيها فأهله وذووه في الكوفة ، وقد عرفت من أمرهم ما كان .

وأما أولها فأهله وذووه حول « الحسين » وما أظنك ستسمع منهم غير كلمة الثأر ، تجرى حارّةً على ألسنتهم ، وتخفق بها قلوبهم .

فما كان « مسلم بن عقيل » هيناً على أهله وذويه ، وما كان « مسلم بن عقيل » هيناً على « الحسين » ، وما أبعد « الحسين » ولا أبعد آل « مسلم بن عقيل » عن الجاهلية كثيراً فينسوا الوِتر وينسوا الثأر .

فانضم هذا إلى ما عند « الحسين » من عزم أخير على أن يسير ، على الرغم من تثبيط نفر من أصحابه ، كانوا من أنصاره ولم يكونوا من أهله ، فعز عليهم مقتل « مسلم » ولكنه هالهم هذا العزم

فخافوا وتعلّقوا بالحسين يرجونه ألاّ يمضى .

ولكنهم على هـــذا كانوا يُشفقون للمَوتورين من آل « مسلم » فملكوا رأيهم حين أشاروا ، ولم يملكوا قلوبهم حين وَجِدت على القتيل ، وحين رثت للموتورين ، لهذا لم يُغن رأيهم شيئاً ، وغلبتهم كلمة « الحسين » على هذا الرأى حين سمعوه يقول : لاخير فى العيش بعد هؤلاء . وغلبتهم على رأيهم كلمات أخرى صاح بها نفر من المَوتورين ومن غير الموتورين ، وهم يقولون للحسين : ما أنت مثـــل « مسلم بن عقيل » ولو قدمت الكوفة لكان الناس أسرع إليك .

* * *

ومضى « الحسين » لا يمر بماء إلاّ اتبعه من عليه ، فإذا هو كثير الجند بمن انضم إليه ، وإذا هذه الكثرة المنضمة ترد أصحابه المتهيبين إلى إقدام ، وتزيد أصحابه غير المتردّدين إقداماً .

وإذا حادثة أخرى تنضمّ إلى ما كان فتقتلع ما بقى من تهيـب فى نفوس هؤلاء المتهيبين، وتملأ قلوب غيرهم حماساً .

فقد كان « زهير بن القين البجلى » خرج للحج ـــ وكان

عثمانيا — فلما عاد من حجه جمعه و « الحسينَ » الطريق ، وكانَ يساير الحسين إلا أنه لا ينزل معـــه ، واستدعاه « الحسين » فلم يجبه ، ثم أجابه على كُره منه .

وإذا هو حين خرج من عند «الحسين » يدعو أصحابه إليه يقول لهم : «من أحب منكم فليتبعنى ، وإلاّ فإنه آخر العهد به وسأحدّثكم حديثا : غزونا بَلنجر[1] ، ففُتح علينا وأصبنا غنائم ففَرحْنا . وكان معنا « سلمان الفارسى » فقال لنا : إذا أدركتم سيد شباب أهل محمد فكونوا أشدَّ فرحاً بقتالكم معه مما أصبتم اليوم من الغنائم ؛ فأمّا أنا فأستودعكم الله . ثم طلّق زوجته وهو يقول لها : الحقى بأهلك ، فإنى لا أحب أن يُصيبك فى سَببى إلا خير . ولزم « الحسين » .

وهكذا مضى « الحسين » بمن معه قد نسوا كلّ ما بدا لهم من رأى صارف ، وامتلأت نفوسهم بكل ما يدفعهم إلى القتال دفعا ، لا يَثنيهم بعدَ هذا من يعرض لهم ببعض الطريق يَلفتهم عمّا عقدوا عليه النية ، إلى ما نبذوه وراءهم ظهريّا .

---

١ — بلنجر : مدينة ببلاد الخزر .

كذلك الذى كان من « عبد الله بن مطيع » حين لقى « الحسين » فى طريقه إلى الكوفة على ماء من مياه العرب ؛ فتعلق به يستحلفه وهو يقول له : بأبى أنت وأمى يابن رسول الله ، ماأقدمك ؟ ... أذكرك الله يابن رسول الله وحُرمة الإسلام أن تُنتهك ! ... أنشدك الله فى حرمة قريش !... أنشدك الله فى حرمة العرب ! ... فوالله لئن طلبت مافى أيدى بنى أمية ليقتلنّك ، ولئن قتلوك لايهابون أحداً أبداً ، والله إنها لحرمة الإسلام ، وحرمة قريش ، وحُرمة العرب ، فلا تفعل ولا تأت الكوفة ولا تعرّض نفسك لبنى أمية .

* * *

كلمة لو قيلت قبل اليوم لو جدت أذنا صاغية ، ولكانت إلى كلمة « ابن عباس » — التى مرت بك — ذات صدًى ، فلقد كان أخوف ما يخافه « ابن عباس » ، وأخوف ما يخافه « زهير بن القين » أن يمضى « الحسين » مقتولا ، فلا يجد الهاشميون ومن إلى الهاشميين رجلاً قويا يلتفّون حوله .

ولقد كان أخوف ما يخافه « ابن عباس » ، وأخوف ما يخافه

« زهير » أن يَهون أشراف الهاشميين وغير الهاشميين من أتباعهم على بنى أمية ؛ فلا يعبئون بعدها بمن يقتلون .

ولكن الناس — كما قلت لك — لم يَعُد لهم رأى يُقَلِّبونه ، وإنما أصبحوا بين يدى ثأر يسعون إليه ، وقد أصبحوا قوة بمن انضموا إليهم ، وأصبحوا أقوياء بمــا قرّ فى آذانهم وانتهى إلى قلوبهم من كلام « زُهير بن القين البجلى » .

* * *

١٩

ويكتب « الحسين » إلى أهل الكوفة يخبرهم بمقدمه عليهم ويستنهضهم ، ويبعث إليهم كتابه هذا مع رسول له هو « قيس ابن مسهر الصَّيداوى » .

ولكن الرسول يُقبض عليه فى الطريق ، ويُسلمه القابضون عليه إلى « ابن زياد » — وكان « ابن زياد » قد فرّق شرطته فى الطرق المفضية إلى الكوفة ، حين بلغه خروج « الحسين » إليه .

وكأنى بك تسألنى ما فعل « ابن زياد » بالرسول ؟ ... وكأنى بك قد نسيت — وأنت تسأل — ما عرفت عن عنف « ابن زياد » وقسوته وفحشه ، إلاّ أنى لا أحب أن أغيِّب عنك شيئا من عنف « ابن زياد » وقسوته وفحشه ؛ لتكون معى غير شاكٍّ فيما وصفناه به .

فلقد أمر « ابن زياد » رسول « الحسين » هذا أن يصعد القصر فيسُب الكذاب ابن الكذاب « الحسين بن على » .

فيصعد الرسول القصر — وابن زياد يظن أنه قد ائتمر

بأمره — فإذا الرسول يعلن بصوته المدوّى : « إن هذا الحسين ابن على ، خير خلق الله ، ابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا رسوله إليكم ، وقد فارقته وهو منكم غير بعيد ، فأجيبوه » .

كلمة جريئة يمليها قلبٌ شجاع . لو جرت على لسان غيره ممن وقعوا فى يدى « ابن زياد » من قبل لغيرت مجرى الحوادث ، ولدفعت الناس الذين أظلهم « ابن زياد » وهم له متهيّبون ، إلى العناد عليه والوقوف فى وجهه ، ولكنها جاءت متأخرة حين امتلأت القلوب هيبة من « ابن زياد » وخوفا منه .

ولقد أحسها « ابن زياد » مقلقة ذات خطر ، وأحس إن هو فوتها بعقوبة رقيقة عادلة أحيت فى القلوب ما أماته هو بأسلوبه القاسى العنيف ، واقتلعت ما غرس من أصوله .

لهذا التفت « ابن زياد » إلى جنده ، لم يفكر إلا فى ما دبره لهذا الرسول من عذاب شديد ، وهو يقول لهم آمرا : ارموا به من أعلى القصر .

فإذا هذا الرسول على الأرض وقد تقطّع جسمه إربا إربا ،

وقد غرق فى دمه .

. . .

لم يفعل هذه وحدها « ابن زياد » بهذا الرسول ؛ بل فعلها برسول آخر للحسين ، وكان هـــذا الرسول أخا للحسين من الرضاعة ،وهو : «عبد الله بن بقطر».

وكما وقع « قيس بن مسهر» فى يدى « ابن زياد » وقع «عبد الله ابن بقطر » فى يديه ، وكما أمر « ابن زياد » « قيس بن مسهر » أن يصعـــد فوق القصر فيلعن الكذاب ابن الكذاب ، أمر « ابن بقطر » أن يصعد القصر فيلعن الكذاب ابن الكذاب ، وكما كان من « قيس بن مسهر » كان من « ابن بقطر » ، وكما نكّل « ابن زياد » بـ«ابن مسهر » نكل بـ «ابن بقطر ».

غير أن قتل «ابن مسهر» على هذه الصورة التى مرت بك جرى وكان المسىء فيها واحـــدا ، هو : « ابن زياد » ، ولكن قتل « ابن بقطر » جرى ، وقد انضم إلى الإساءة فيه مسىء آخر غير «ابن زياد» . فما أسرع ما يتعاون على الشر من تعمّر قلوبهم بالشر ، يسبقهم إليه أجرؤهم عليه ! . . .

فلقد أدرك « ابن بقطر » الأرض وبه رمق ، بعد أن تكسرت عظامه . فإذا رجل من أتباع « ابن زياد » يسرع إليه لا ليخفف عن هـذا الجريح أو يعينه ، ولكن ليذبحه فيجهز عليه .

وإذا ما اتجه إليه نفر من الناس أنستهم الرحمةُ بالشقيّ المُعنّى رهبة ، « ابن زياد » يلومونه ، استخزى بينهم وردّ عليهم يقول : إنما أردت أن أريحه .

. . .

ولقد مرقتل « ابن مسهر » وما بلغ « الحسينَ » عنه شيء ؛ ولكن مرقتل « ابن بقطر » وقد انتهى إلى « الحسين » عنه كل شيء .

عندها أدرك « الحسين » أن أخاه من الرضاعة قد بلّغ رسالته فوفّى ، وعندها أدرك « الحسين » أن شيعته بالكوفة قد بلغتهم الرسالةُ فلم يفعلوا شيئا ، ففتّ ذلك في عضده ، والتفت إلى أصحابه وقد عزّ عليه أن يركب بهم طريقاً غير مأمون ، وأن يدفع بهم إلى مالا يأمنه عليهم فحركه الوفاء لمن معه ، والحرص على حياة

من شايعوه على أمره ، أن يخطبهم فيقول : « خذلنا شيعتنا ، فمن أحب أن ينصرف فلينصرف ، ليس عليه منا ذمام .

وكأنى بالحسين قد أحس من الأعراب حوله ما قد دار بخلدهم حين التفوا به واجتمعوا حوله ، وأنهم قادمون معه على بلد قد استقامت له طاعة أهله ، وإن هى إلا جولة أو اثنتان، ثم ينقلبون بالخير الكثير والمغنم الواسع .

وكأنى بالحسين وقد خشى أن يعرف الناس فيما بلغهم من قتل « ابن يقطر » وتخاذل الشيعة ما يفزعهم، فيرتدون عنه عن غير أمره ، مشفقين من هذه الحرب التى هم مستقبلوها نكراء وقد ظنوها ليس فيها عناء .

وكأنى بالحسين وقد أراد أن يكون الناصح الأمين : كما هو العهد به، لا يغر ولا يخدع : فأحب أن يكشف للناس معه عما سيلاقون .

ولقد صدق « الحسين » ظنه ؛ فما إن قال ما قال حتى تفرق هؤلاء الذين التفوا حوله راغبين فيه شيئا ، وطامعين فى المغانم شيئا ، فإذا حياتهم أغلى عليهم من هذه الرغبة وذلك الطمع ، ومضى « الحسين » إلى طيته بمن بقى معه من أصحابه الذين خرجوا معه من مكة .

٣٠

لقد كان « الحسين » غير هؤلاء جميعا ، يؤمن أنه مقحم نفسه فى شر كبير ، ولكنه يؤمن معه بأنه بين يدى واجب كبير ، ويومن بأن شيعته قد تخاذلوا ؛ ولكنه يؤمن مع ذلك بأن عليه أن يلقاهم ، عسى أن يغنى هذا اللقاء فيعوضه ما فات ، ثم هو — كما قلت لك — مدفوع إلى ذلك دفعا ، يستحثه قضاء الله وقدره ، إلى حيث يكون قضاء الله وقدره .

لهذا لم يسمع الحسين إلى هذا العربى الذى لقيه غير بعيد من الكوفة ، وكان على علم بما أعد القوم له ، وكان على علم بما انتهى إليه أمر الشيعة ، فقال : أنشدك الله لما انصرفت ، فوالله ما تقدم إلا على الأسنة وحد السيوف ، وإن هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤونة القتال ، ووطئوا لك الأشياء فقدمت عليهم ؛ — لكان ذلك رأيا؛ فأما على هذه الحال التى تذكرها فلا أرى لك أن تفعل .

فما كان جوابَ الحسين إلا أن قال : إنه لا يخفى علىّ

ماذكرت ، ولكن الله عز وجل لا يُغلب على أمره .

* * *

ويمضى الحسين على رأس جيشه المكدود ، أما عن عناء السير ومشقة السفر فلا تبالى الجيوش كم تجشمت ، وكم أياما طوتها على الجوع والظمأ ، وكم جرعة كدرة ارتشفت ، ولقمة قذرة أكلت ، كما لا يشفق قادة الجيوش بما يعانى الجسد من هذا كله ؛ اللهم إلاّ أن يجرهم إلى متلفة . فلذلك كله خُلُق الجندى ، وعلى هذا كله يُمرَّس الجندى .

أما الذى يدخل على الجيوش فيُوهن من بأسها ، ويَفُل من عَزْمها ، ويُرد النفوسَ جزعة ، والقلوب هلعة ؛ ـ فذلك هو ماتخشاه الجيوش ، وتخشاه قبلها قادتها .

ولقد دخل على جيش الحسين من هذا كله شىء كثير ، فمنذ غادر هذا الجيش المدينة يقصد قَصْد مكة ، وهو بين فِتن هوجاء ، وآراء مضطربة ، وكلماتٍ موزّعة ، لا يكاد يجتمع على شىء إلا بداله غيره ، ولا يكاد يمسك بما بداله حتى يرتدّ إلى ما ترك ، وإذا هو آخر الأمر يضرب فى الأرض بخطى

ثقيلة ، وعقول موزعة ، ونفوس مبلبلة ، لا يدرى ما هو ملاق في يومه ، ولا ما هو مُستقبل في غده . ثم هو أجهل ما يكون بما عبأه له «ابن زياد» وما أعدّه له .

ليست له طليعـــة كاشفة ، ولا عيون راصدة ، ولا أدلاء هادون ، كما ليس له مُعتَمد من عَتاد ، ولا مُدَّخر من زاد ، ولا خُطة في إقبال ولا إدبار .

تحس ذلك جليًّا حين أدرك هذا الجيش «شراف» مع منتصف النهار ، وقد غطّت الشمس الأرض فكشف لهم عن كل ما عليها ، وإذا رجل من جيش الحسين يكبر ، وإذا أصحابه يفزعون إليه يستوضحونه لم كان تكبيره؟ فيقول : إنى أرى نخلا — يعنى أنهم قد أشرفوا على الريف ، وهذه نخلاته ليس بينهم وبين أن يصيبوا من ثمرها إلا خطوات ويعنى هذا الرجل أنهم قد أشرفوا على حدود العراق ، وهم على أن يدخلوه دون أن يلقوا كيدا .

فيقف إليه رجلان من بنى أسد ، كانا على علم بمواقع الأقدام «فيقولان» نحن في أرض لا عهد لها بنخل قط .

وعندها تشرئبُّ عنق «الحسين» بنظره وتشرئبّ أعناق القوم

ينظرون ، فإذا ما رآه هذا الرجل نخلا إنما هو خَيل العدو؛ وهذه هواديها تهتزُّ على صفحة البيداء ، فيخيِّل الجوع شيئا ، ويخيِّل اليأس شيئا، فيحسبون أنهم أدركو الريف ،وأنهم على أبواب العراق .

وهنا يقف هذا الجيش المكدود ليستقبل جديدا لم يكن فى حسبانه ، يصحو عليه كما يصحو النائم المفزَّع، لا يدرى أهو لا يزال موصولا بنومه، أم هو قد استيقظ منه.

ويلتفت الحسين إلى هذين الرجلين الأسديّين ليستشيرهما ، وقد عرف ما عندهما من خبرة ، وهو يقول لهما : وهل لنا من ملجإ نلجأ إليه نجعله فى ظُهورنا فنستقبل القوم من وجه واحد ؟

فيدلانه على جبل إلى جنبه عن يساره ، وسَرعان ما مال إليه « الحسين » بمن معه ، وسرعان ما تبعتهم خيل العدو إليه فكانوا تلقاءهم .

. . .

ولم يكن هذا الجيش الذى خرج للقاء « الحسين » من الكوفة ينتظم غير أهل الكوفة ، ولم يكن قائد هذا الجيش

الذى خرج على هذا الجيش من الكوفة إلاّ رجلا من أشراف الكوفة .

ترى أين هم شيعته الذين كاتبوه ؟ ... وترى أين هم جنده الذين خرج ليلقاهم ليعينوه ؟

إنهم كانوا لاشك من أهل الكوفة ، وهاهم أولاء أهـــل الكوفة أمامه ، ولكنهم جاءوه حربا عليه لامددا له .

ولكن ما باله لا يلقاهم فيذكّرهم بما كان منهم إليه ، فقد يكون « ابن زياد » أشبهم عليه وغرّهم عمّا يؤمنون به ، وبذل لهم ما يفسد نفوسهم .

وعلى هذا صمم « الحسين » . فخرج إليهم يخطبهم وهو يقول : « أيها الناس ، إنها معذرة إلى الله وإليكم ، إنى لم آتكم حتى أتتنى كتبكم ورسلكم أن اقدم إلينا ، فليس لنا إمام ، لعلّ الله أن يجعلنا بك على الهدى . وقد جئتكم ، فإن تعطونى ما أطمئن إليه من عهودكم أقدم مصركم ، وإن لم تفعلوا وكنتم بمقدمى كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذى أقبلت منه .

وينبرى له « الحرّ بن يزيد التميمى » قائد هذا الجيش الكوفى

إليه — يقول : إنا والله ما ندرى ما هذه الكتب والرسل التى تذكر .

عندها يُخرج « الحسين » ، خرجين مملوءين صحفا ، فينثرها بين يدى « الحر » والقوم ينظرون .

فيقول له « الحر » فى حزم ، وكأنه لم ير شيئا : فإنا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك .

* * *

موقف جديد غير ما سبقه من مواقف ، ما كان أولى « الحسين » أن يقفه منذ أن فكر فى الأمر ، ومنذ أن كانت له عليه عزيمة .

ولكن الأمور — كما تبين لك — مرت عجلة مضطربة ، يدفع إليها أملٌ أولا ، ويُنهض إليها حقٌّ ثانيا ، وتسوق الأحداث مع هذا وذاك ما يحفز إلى هذا الأمل وذاك الحق ، وما يصرف عن هذا الأمل وذاك الحق ، ولكن النفوس إذا امتلأت بهذا الأمل وتعلقت بذلك الحق كانت آبى على ما يصرفها ، وأميل إلى ما يدفعها ، وكذلك كان الحسين .

ولكن « الحسين » فى ساعته هذه بين يدى حقيقة مُرة تصرفه عن أمله وعن حقه ، وهو لا يملك أن يمضى ، ولكنه يؤثر أن ينصرف . ولقد خال إن هو فعــــل أنه صارفٌ عنه عدوه ومُنصرف هو إلى حيث يريد .

ولقد كانت هذه هينّة على « ابن زياد » أن يُعطيها . ولكنه داهية محنك يعرف ما عند الهاشميين ولا يجهله ، ويعرف أن « الحسين » إن نجا من هذه فهو لا شك مدبِّر لغيرها ، وهو من أجل ذلك قــــد أوصى قائده ألا يدع « الحسين » يرجع ؛ بل يأتيه به .

وكان « الحسين » هو الآخر داهية محنَّك ، يعرف ما عند الأمويين ولا يجهله ، ويعرف إن هو أسلم نفسه إلى « ابن زياد » فقد قضى على دعوته أولاً ، وقد يقضى على حياته ثانيا ، ولم تكن حياته إلى دعوته شيئا يأبه له الحسين ؛ ولكن كانت دعوته إلى حياته هو ما يأبه له . من أجل ذلك أبى على قائد « ابن زياد » أن يمضى معه إليه ، وقال له بعد أن أخبره « الحر بن يزيد التميمى » بأنه غير تاركه حتى يقدم به على « ابن زياد » : الموت أدنى لك من ذلك .

ولقدهم « الحسين » لينصرف بجيشه ، فمنعه « الحر » . ولقد أغلظ « الحسين » للحر ، فلم يُغلظ « الحر » للحسين ، وما نظن القوم الكوفيين قد تجردوا عن كل ما يكنون للحُسين من تعظيمه ، وإن كانوا قد اضطروا أن يتجردوا عن غيره .

ولقد رفق « الحر » بالحسين يريد أن يرزقه الله فيما ابتلى به العافية ، ولقد رزق الله « الحر » هذه العافية فيما ظن ، وهو يشير على « الحسين » بأن يأخذ طريقا لا تدخله الكوفة ولا ترده إلى المدينة ، وهو يريد بذلك أن يكسب وقتا يكتب هو فيه إلى « ابن زياد » ، ويكتب « الحسين » فيه إلى « يزيد » أو « ابن زياد » لعل الله أن يأتي بأمر يكون فيه الفرج .

* * *

٣١

ويسير «الحسين» ويسايره «الحر»، و «الحسين» طامع في قلوب هؤلاء الجند الكوفيين الذين مضوا إلى جنبه يسايرونه، يخطبهم ويذكرهم وعودهم، ولكنه كان في خطبه هذه شديداً عليهم عنيفا بهم. ولقد أثر له من قوله فيهم: «قد أتتني كتبكم ورسلكم ببيعتكم وأنكم لا تسلموني ولا تخذلوني، فإن أقمتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم. وأنا الحسين بن علي بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، نفسي مع نفسكم، وأهلي مع أهلكم. فلكم فيّ أسوة. وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدي وخلعتم بيعتي فلعمري ما هي لكم بنكير. لقد فعلتموها بأبي، وأخي، وابن عمي «مسلم بن عقيل» والمغرور من اغتر بكم فحظكم ونصيبكم ضيعتم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه. وسيغني الله عنكم.

* * *

وكما لم تغن خطبته الأولى فيهم لم تغن خطبته الثانية، والقوم هم القوم مسيَّرون لا مخيرون، وقائدهم هو قائدهم مسيّر هو الآخر لا مخير،

ويخاف أن يبلغ « ابن زياد » عنه أنه مال أو حاد أو فتر ، فيقول للحسين وهو يخوفه : أذكّرك الله في نفسك، فإني أشهد لئن قاتلت لتقتلن .

فيهيج « الحسين » لما قال « الحر » ، ويلتفت إليه مغضبا وهو يقول له :

أبالموت تخوفني؟! . وهل يبدو بكم الخطب أن تقتلوني ، ما أدري ما أقول لك ، ولكني أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه ، وهو يريد نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلى أين تذهب فإنك مقتول ؟ فيقول هذا الأوسي :

سأمضي وما بالموت عار على الفتى

إذا ما نوى خيراً وجاهد مسلما

* * *

وهكذا رأى « الحسين » فيما يُعرض عليه ذلّ الأبد فلم يرضه ، ورأى نفسه في محنة ، والمحن كما تضيق تنفرج ، يملأ اليأس قلب الضُعفاء فيجبنون ويصغرون . وتتأبى على اليأس قلوبُ الأقوياء فلا يهنون .

ولقد كان « الحسين » من هؤلاء الأقوياء فلم يَهن ، ومضى في سيره و« الحر » يُسايره .

وفيما هم ماضون يخبطون في الأرض لا تُعرف لهم وجهة ، ولكنهم على كل حال غير قاصدين قَصد الكوفة ، ولا قاصدين قصد المدينة ، إذا هم بأربعة نفر قد أقبلوا من الكوفة على رواحلهم .

وكان « الحسين » على الرغم مما بدا له من أهل الكوفة لا يزال يَربطه أملٌ بهم ، فلقد كان يؤمن في قرارة نفسه أنهم أنصاره ، ولكن غلبه « ابن زياد » عليهم ، وأنهم بين يدى دنيا فيها كل ما يُغرى من مال وجاه ونشب ، وقد ملكه « ابن زياد » باسم « يزيد » ، وفيها كل ما يُغرى بنَصْره على حقه ، طمعا في ثواب وطمعا في قربى من آل البيت ، وقد ملك هو أسبابها ، ولكنه لم يستطع أن يملأ بها قلوبهم ليَنسوا ما أغراهم به « ابن زياد » .

وعلى نحو ما عرف « الحسين » أهل الكوفة عرفهم « الحر بن يزيد التميمى » من أجل هذا تطلّع الحسين إلى هؤلاء النفر الأربعة الذين طالعوه من الكوفة ، وهو يظن أن عندهم خبرا ينتفع به ، ومن

أجل هذا تطاع «الحر» إلى هؤلاء النفر، وهو يظن أن عندهم شراً يُفسد عليه أمره.

ومن أجل هذا أراد «الحسين» أن يلقاهم ليعرف ماعندهم ومن أجل هذا أراد «الحر» أن يمنعهم عنه، ويقول «الحر»: إن هؤلاء النفر من أهل الكوفة وأنا حابسهم أو رادُّهم.

ويقول الحسين: لأمنعنَّهم ممَّا أمنع منه نفسي، إنما هؤلاء أنصاري وهم بمنزلة من جاء معي، فإن كففت عنهم وإلا ناجزتك.

ولقد كان «الحر بن يزيد» يبغي العافية لنفسه ما استطاع، ولم ير فيما طلب «الحسين» كبير بأس، وهل هم غير أربعة لا يغنون شيئاً، ولقد ترك الكوفة لابن زياد، وترك «ابن زياد» «الحسين» له، فكف عنهم.

ويجلس إليهم «الحسين» يستخبرهم خبر الناس خلفهم، وهو يطمع في أن يسمع منهم غير ما بلغه عنهم، فيوجه الأمور توجيهاً جديداً. فينبرى للحسين أحدهم وهو يقول: أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم، وملئت غرائرهم، فهم إلبٌ واحد عليك.

وأما سائر الناس بعدهم فإن قلوبهم تهوى إليك وسيوفهم غداً مشهورة عليك .

ويلتفت إليه ثانيهم وهو يقول: «لقد رأيت قبل خروجي من الكوفة بيوم ظهر الكوفة وفيه من الناس مالم تر عيناى جمعا فى صعيد واحد أكثر منه قط ايسيروا .فأنشدك الله إن قدرت على ألا تتقدم إليه شبراً فافعل .

فأطرق « الحسين » وهو يقول :

إن بيننا وبين هؤلاء القوم قولا لسنا نقدر معه على الانصراف ، ولاندرى علام تتصرف بنا وبهم الأمور .

* * *

٢٢

حيرة لا يقدر « الحسين » على أن يقضي فيها رأى ، لا يملك أن يرجع عنهم كما لا يملك أن يرجع إليهم . ولكنه صاحب حق يؤمن به ، وما يحب أن يهزم عليه ، وأن يكون الهازم له هؤلاء النفر من الأمويين الذين يراهم مغتصبين ثم هم غير عادلين ، وهؤلاء النفر من أهل الكوفة الذين كانوا له فإذا هم عليه .

وإنها لمرة على النفس أن يهزمك خصمك بصديقك ، ويغلبك بأنصارك .

ويمعن « الحسين » في إطراقه فإذا رأسه يخفق خفقة ثم ينتبه وهو يقول : « إنا لله وإنا إليه راجعون ، والحمد لله رب العالمين » .

فيفزع لما نطق به الحسين ابنه « على بن الحسين » ويقبل على أبيه آسيا وهو يسأله : « يا أبت ! ... جعلت فداك ، مم حمدت واسترجعت ؟ ... »

فيجيبه أبوه آسياً كذلك : « يا بني ! ... إني خفقت برأسي خفقة

فمن لى فارس على فرس فقال : « القوم يسيرون ، والمنايا تسير ؛ فعلمت أن أنفسنا نُعيت إلينا » .

فيقول علـــى : يا أبت ، لا أراك الله سوءا ، ألسنا على الحق .

فيقول له الحسين : بلى ، والذى يَرجع إليه العباد .

فيقول على : إذن لا نُبالى أن نموت محقين .

فيقول له الحسين : جزاك الله من ولد خيرا ، ما جزى والدا عن ولده .

* * *

وهكذا قَرّ فى نفس « الحسين » أن يستدبر دنياه ليستقبل أخراه ، وهكذا اطمأن الحسين حين سمع ما سمع من ابنه أن فى إثره مَن سيحمل هذا الحق عنه .

ولكنه كان على هذا مُشفقا على أصحابه ، لا تريد أن يعرّضهم للتلف ، ولا أن يتركهم فريسة للعدو ، فأخذ يَميل بهم يَسرة ويَمنة ، يريد أن يفرّقهم ، ويريد أن يَنفَضُّوا عنه و « الحـــر » يأبى عليهم ذلك ، وهو يريد أن يسوقهم بجمعهم

إلى الكوفة فيأبون عليه .

وفيما هم فى ذلك إذا راكب من الكوفة قد أقبل عليهم فتلبثوا ينظرون على أمل ، وإذا هو يسلم على « الحر » ولا يسلم على « الحسين » ، فتطلعوا ينظرون على غير أمل .

فلقد كان هذا الراكب رسولَ « ابن زياد » إلى « الحر » وإذا معه كتاب إليه وإذا فيه : أما بعد ؛ فَجعجع بالحسين — أى ضيّق عليه المكان — حين يبلغك كتابى ويَقدم عليك رسولى ، فلا تنزله إلا بالعَراء فى غير حِصن وعلى غير ماء ، وقد أمرت رسولى أن يَلزمك فلا يُفارقك حتى يأتينى بإنفاذك أمرى ، والسلام .

* * *

وكان « الحر » كما تعلم رجلا يحب العافية ، ولكنه كان إلى ذلك رجلا يخاف « ابن زياد » . وحب العافية فى ملك الرجل ما لم يَنقضه عليه الخوف ، لا سيّما إذا كان هذا الحب للعافية لونا من ألوان البقية التى كانت فى قلب « الحر » .

لذلك سرعان ما استجاب « الحر » لأمر « ابن زياد » يتخذ من وجود هذا الرسول معه عينا عليه ، مايُبرر به هذه الاستجابة لأمر « ابن زياد » .

فلقد ضيّق « الحر » على « الحسين » ومن معه ما وسعه هذا التضييق ، وأخذهم بالنزول على غير ماء ولا فى قرية .

ويقول له الحسين ومن معه : دعنا ننزل على ماء أو نخل قريـــة .

فيقول لهم الحر : لا أستطيع ، إن هذا الرجل قد بُعث عيناً علىّ .

* * *

عند هذا ينبرى أحد رجال « الحسين » للحسين يقول له : « إنه لا يكون والله بعدما ترون إلا ما هو أشد منه يابن رسول الله ، وإن قتال هؤلاء الساعة أهون علينا من قتال من يأتينا من بعدهم ، فلعمرى ليأتينّا من بعدهم ما لا قِبَل لنا به .

فيقول الحسين : ما كنت لأبدأهم بالقتال .

وما إن يُظلهم الغـــد حتى تُظلّهم شـدة أخرى ،

لا تدع لهم مجالا فى التفكير فيما أشار به هذا المشير بالقتال .
فقد رأوا جيشا جديدا يُطالعهم من الكوفة ، وعليه « عُمر ابن سعد بن أبى وقاص » ، ينضم إلى هذا الجيش الذى أحاط بهم وعليه « الحر بن يزيد » .

* * *

٢٣

ولقد كان لـ «عمر بن سعد بن أبي وقاص» قبل أن يقدم بجيشه، مع «ابن زياد» قصة، ولقد كان في هذه القصة ما يُلقي ضوءا جديدا على ما نحن فيه، وما يكشف لك شيئا عن تحوّل الناس عن الأخذ من دنياهم بما ينفعهم لآخرتهم، إلى الأخذ من دنياهم بما لا ينفعهم في آخرتهم، وما يدلك شيئا على أن الناس انصرفوا عن الغرض العام الذي يؤسّس لدولة صالحة نفعها لهم جميعا، إلى النّفع الخاص الذي يمهّد لجاه فردي نفعُه لآحاد منهم.

فلقد كان «عبيد الله بن زياد» بعث «عمر بن سعد بن أبي وقاص» على هذا الجيش إلى الدّيلم؛ ليردهم إلى الطاعة بعد ما خرجوا عليه. فلما تم له ما أراد، ولاه «ابن زياد» الرّي.

ثم كان ما كان من أمر «الحسين»، فكتب «ابن زياد» إلى «عمر بن سعد» يأمره أن يسير إلى «الحسين»، ووعده إذا هو فرغ من أمر «الحسين» رده إلى عمله الذي كان عهد إليه به.

ولقد استكبرها «عمر بن سعد» أولا — أعنى أن يتوجه بجيشه إلى «الحسين» — وأباها على «ابن زياد» واستعفاه منها ثانيا .

ولكن «ابن زياد» كان ماكراً يعلم من أين تؤكل الكتف . فما إن وصله ردُّ «عمر بن سعد» حتى أرسل إليه يقول له : نعم ، على أن تَرُد عهدى ، وهو يعنى عزله عن الرَّى .

وما تكاد الدنيا تتذكر لـ«عمر بن سعد» ، أو أنه سيفقد نصيبه منها ، حتى يَهلع . ويُرسل إلى «ابن زياد» يقول له : أمهلنى يوماً حتى أنظر .

ويجلس «عمر بن سعد» إلى أصحابه يستشيرهم ، فكلهم يُشير عليه ألا يفعل ، ويأتيه «حمزة بن المغيرة بن شعبة» — وكان ابن أخته — فيقول له : أنشـــدك الله ألا تسير إلى «الحسين» فتأثم وتقطع رحمك ، فوالله لأن تخرج من دُنياك ومالِك وسلطان الأرض ، لوكان لك خير ، من أن تلقى الله بدَم «الحسين» .

فتبلغ كلمات ابن أخته من قلبه ، وينصرف عنه وهو فى ظاهر أمره مُجيب ، ولكنه كان فى باطن أمره رافضا ؛ ويبيت ليلتـــه ولسانه يردد :

أأترك ملك الرىّ والرىّ رغبتى
أم ارجع مذموما بقتل حسين
وفى قتله النار التى ليس دونها
حجاب وملك الرىّ قرة عين

وهو على ذلك يصبح مترددا ، فيأتى «ابن زياد» فيقول له : إنك قد وليتنى هذا العمل وسمع الناس به ، فإن رأيت أن تنفذ لى ذلك فافعل ، وابعث إلى الحسين من أشراف الكوفة من لست أغنى فى الحرب معه - ويسمى له أناسا .

فيقول له «ابن زياد» : لست أستأمرك فيمن أريد أن أبعث، فإن سرت بجندنا ، وإلّا فابعث إلينا بعهدنا .

عندها تغلب الدنيا بمتاعها «عمر بن سعد» على أمره ، وإذا هو يقول : فإنى سائر .

وعلى هذه قدم « عمر بن سعد بن أبى وقاص » على جيشه هذا الذى كان يضم أربعة آلاف مقاتل ، وعلى هذه أصبح «الحسين» يقاتل هذين الجيشين اللذين لا قبل له بهما .

* * *

ولقد أرسل «عمر بن سعد» إلى «الحسين» حين قدم عليه بجيشه يسأله ما الذى جاء به.

وكأن «عمر بن سعد» لم يكن يعرف فيم خرج «الحسين»، وإلى أى شىء، ولكنها لغة القواد يحبون أن ينذروا قبل أن ينذروا.

أو لعل «عمر بن سعد» أراد هو الآخر أن يضمن العافية، كما أراد أن يضمنها «الحر بن يزيد»؛ من أجل ذلك بعث إلى «الحسين» يسأله، وقد يجيب «الحسين» بما يجد هو فيه مخرجا من ذلك الضيق.

وكان «الحسين» صريحا فيما أجاب به «عمر بن سعد»، لا يلتفت إلى حقه، ولكنه يلتفت إلى شىء أقل من ذلك، فيقول له: «كتب إلى» أهل مصركم هذا أن أقدم عليهم، فأما إذ كرهونى فإنى أنصرف عنهم.»

وهكذا أعطى «الحسين» «عمر بن سعد» سببا يستطيع هو أن يتعلق به، إن صح منه العزم على أن يمد إلى «الحسين» يداً.

ولكن «عمر بن سعد» لم يكن يملك الأمر كله فيقضى

فى أمر « الحسين » بما يرى ولكنه كان يملك أن يمهل « الحسين » حتى يكتب إلى « ابن زياد » .

وهكذا كتب « عمر بن سعد » إلى « ابن زياد » يخبره بما كان من « الحسين » .

* * *

ولئن كان « الحر بن يزيد » ممن يرجون العافية ويطمعون فيها ، ولئن كان « عمر بن سعد » ممن أرادوا العافية وطمعوا فيها ؛ فلم يكن « ابن زياد » ممن لا يميل إلى العافية ولا يطمع فيها ، ولكنه كان أشبه شيء بالذئب المفترس الجائع لا يثنيه استسلام الفريسة بين يديه عن أن يُنشب فيها أظافره ، فما كاد « ابن زياد » يقرأ ما كتب إليه « عمر بن سعد » حتى تمثل بقول القائل :

الآن إذ علقت مخالبنا به ... يرجو النجاة ولات حين مناص

ثم كتب إلى « عمر بن سعد » يأمره أن يَعرض على الحسين بيعة « يزيد » .

وما وقف « ابن زياد » عند هذه يجتزىء بها من « الحسين » ،

ولكنه جعل أمر « الحسين » بعدها — إن فعل — إليه يأمر فيه بأمره .

ثم خاف « ابن زياد » أن يَفتر « عمر بن سعد » عن حصار « الحسين » وهو يُفاوضه ، فأمره أن يَبق على حصاره ، وأن يبق على مَنعه الماء . لا يجعله يدنو منه ، ولا يدنو منه أحد من أصحـــابه .

ولئن كان« عمر بن سعد » قد استقبل أمره مع« الحسين » وهو يريد العافية ، فلقد أستدبره وقد أُنسى تلك العافية .

فما إن وصل كتاب « ابن زياد » إليه حتى أرسل خمسمائة فارس يحيطون بالماء ، إمعاناً منه فى الحيطة ، وإسرافا منه فى الإيذاء . وإذا هذا الإمعان وذلك الإسراف من « عمر » ، ينتقلان إلى رجال « عمر » ، وإذا واحد منهم يتطلّع إلى « الحسين » وهو يقول : يا « حسين » أما تنظر إلى الماء كأنه كبد السماء ، والله لا تذوق منه قطرة حتى تموت عطشا .



وهكذا أنسى الحسين الأمر الذى خرج له ، وعاد يذكر هذا الأمر الذى بين يديه ، لقد خرج ينازع على ملك ، وأصبح اليوم ينازع على حياة ، ولقد جهد به أصدقاؤه أن يبقى فى المدينة لا يغادرها فلم يجبهم ، فإذا هو يجهد بأعدائه أن يرتد إلى المدينة فلم يجيبوه ، ولقد كان له من قبل — غير أهله — أنصار ، منهم المخلص لدعوته الإخلاص كله — وكانوا قلة — ومنهم المخلص لها شيئا من الإخلاص — وكانوا كثرة — ومنهم المسوق لغنم أو نفع — وكانوا بين هؤلاء وهؤلاء — فإذا هو قد فقد هؤلاء جميعا وكاد يفقد معهم بعض أهله .

* * *

وما انتهى حديث « عمر بن سعد بن أبى وقاص » مع الحسين : وإن كان قد انتهى بينه وبين نفسه ، فلقد نظر عمر بن سعد إلى دنياه مغرية فآثرها على أخراه — كما مر بك — وانتهى على أن يخرج إلى الحسين على رأس جيشه ، فأنهى بهذا الرأى الذى رآه

ما بينه وبين نفسه من أخـــذ ورد . ومضى يقضى فى أمره مع الحسين فى ضوء ما قضى مع نفسه .

فلقد بعث الحسين إلى « عمر بن سعد » ذات ليلة يطلب منه أن يلقـاه بين العسكر لا فى هـــذا العسكر ولا فى ذاك ، ولقد خرج إليه « عمر » فالتقيا وتحادثا طـــويلا ، ثم عاد « الحسين » إلى عسكره كما عاد عمر إلى عسكره ، فأفضى الحسين إلى من حوله ا كان ، وأفضى « عمر » إلى من حوله بما كان ، فإذا المتحدثون من هنا ومن هناك يلتقون على خبر واحد فى معناه ، وإن اختلف شيئا فى مبناه .

وإذا هذا الخبر الواحد يرويه الرواة فيقولون : إن الحسين قال لـ « عمر بن سعد » : اخرج معى إلى يزيد بن معـــاوية وندع العسكرين .

فيقول له عمر بن سعد : أخشى أن تهدم دارى .

فيقول له الحسين : أبنى لك خيرا منها .

فيقول عمر بن سعد : تؤخذ ضياعى .

فيقول الحسين : أعطيك خيرا منها من مالى بالحجاز .

وكان وراء ذلك — غير الدار والضياع — عز الولاية وجاه الإمرة ، يطمع فيهما «عمر بن سعد» ويبغيهما لنفسه ، لم يذكرهما للحسين، لأن الحسين كان على حاله تلك أعجز من أن يعد بمثلهما، وهو إن ملك أن يعوض «عمر بن سعد» عن داره وضياعه ، فما يملكه أن يعوضه ولاية وإمرة .

لهذا سكت عمر فلم يقل للحسين شيئا ، ولهذا انصرف «عمر بن سعد» عن «الحسين» ولم يجبه إلى ما طلب.

٭ ٭ ٭

والرواة الذين قالوا هذه قالوا أخرى، فلقد قالوا : إن الحسين قال لعمر : اختاروا منى واحدة من ثلاث : إما أن أرجع إلى المكان الذى أقبلت منه ، وإما أن أضع يدى فى يد يزيد بن معاوية فيرى فيما بينى وبينه رأيه ، وإما أن تسيروا بى إلى أى ثغر من ثغور المسلمين شئتم ، فأكون رجلا من أهله لى مالهم وعلى ما عليهم .

٭ ٭ ٭

ولكن الرواة الذين رووا هذا وذاك يقولون : إن الحسين

لم يطلب أن يضع يده فى يد يزيد ، ولا أن يسيّروه إلى ثغر من ثغور المسلمين ، ولكنه قال : دعونى أرجع إلى المكان الذى أقبلت منه ، أو دعونى أذهب فى هذه الأرض العريضة حتى ننظر إلى ما يصير إليه أمر الناس .

* * *

ولكنى أرى أن هذه الروايات كلها تلتقى على معنى واحد ، وإن أراد المشفقون على « الحسين » ألا يصدر عنه ما يلمزه فى كبريائه .

وكأنى بهؤلاء المشفقين أرادوا أن يخلص لهم كلام « الحسين » على الوجه الذى صوروه ليمضوا بعده فى دعوتهم يكسبون من إبائه البيعة على « يزيد » ، وأنه مضى — رحمة الله عليه — وهو لها رافض ؛ مما يعطيهم الحق بعده فى أن يمضوا هم على الدعوة ويهيئوا لها ، وفرق بين أن يستقبل الدعاة الناس وفى أيديهم هذه الحجة ، وبين أن يستقبلوهم وهم لا يملكون هذه الحجة .

وما أريد أن أقول إن الحسين قال هذا ولم يقل ذاك ، ولكنى أكاد أفهم أن « الحسين » حين طلب إلى « عمر » أن يذهبا معا إلى يزيد ،

لم يطلب ذاك إلا وهو يريد أن يبايع ، ولقد أراد أن يعطى هذه البيعة ليزيد ، ولم يرد أن يعطيها على يدى « عبيد الله بن زياد » وهو مقهور ، ولقد رأى إن هو لقى « يزيد » فقد لقى ندا وملكا ، وإن هو لقى « ابن زياد » فقد لقى عدوا مسفا فى عداوته يريد أن يذله .

وأكاد أفهم أن « الحسين » حين طلب إلى « عمر » أن يحل بلدا من بلاد الله لم يكن يغيب عليه أنه لن يكون له الخيار فى النزول بأى بلد يشاء له فيها أنصار يعود بهم بعد قليل لحرب يزيد ، ولكنه كان يدرك أن اختيار هذا البلد لهم لا له .

وأكاد أفهم أن « الحسين » حين طلب إلى عمر بن سعد أنه سيكون رجلا من الناس ، له ما لهم وعليه ما عليهم ، كان يملى عن روية بعد ما فاته أمر الناس وبعد أن بلاهم فلم يجد عندهم خيرا ، وكان يملى عن رغبة خالصة فى السلم لا يريد أن يجعل لعدوه عليه حقا .

ولو أنه جعل بقاءه فى هذا البلد الذى سيحله هذا الذى رووه عنه ، من أنه سيبقى فيه حتى ينظر ما يصير إليه أمر الناس ، لكان

شيئا ينقض عليه رغبته فى السلم ، ويعطى لعدوه عليه حقا فى ألا يعطى .

ولكنه ـ كما قلت — لم يعدُ هذا الذى أراده الشيعة والأنصار ليمضوا فى دعوتهم معتمدين على أن « الحسين » مضى ولم ينزل عن شيء ، وأنه قد ترك لهم الأمانة ليحملوها عنه ، بعد أن لم تسعفه الأحوال على تحقيقها .

* * *

غير أن الرواة يلتقون مرة ثانية على هذا الخبر الذى خرج عليه بعضهم، ويقولون: إن « عمر بن سعد » حين لم يجب « الحسين » إلى ما طلب حرصا على دنيــــاه كتب إلى ابن زياد يقول : «أما بعد . فإن الله أطفأ النائرة وجمع الكلمة . وقد أعطانى الحسين أن يرجع إلى المكان الذى أقبل منه ، أو أن نسيره إلى أى ثغر ، أو أن يأتى يزيد أمير المؤمنين فيضع يده فى يده ، وفى هذا لكم رضى وللأمة صلاح .

فلقد ذكر «عمر» أن الذى ولاه «ابن زياد» ، ولقد ذكر عمر أن «ابن زياد» أقرب منه إلى « يزيد » ، ولقد ذكر « عمر » أنه إن عدا

«ابن زياد» إلى «يزيد» ولم يرجع إليه ، فليس آمنا أنه سوف يغضب «ابن زياد» ولا يرضى يزيد على حين أنه إن وصل حبله بـ«ابن زياد» فهو ضامن رضى «ابن زياد» و«يزيد» ، ثم هو ضامن بعدها تلك الولاية التي لوح له بها ابن زياد .

لهذا كتب عمر إلى ابن زياد ، ولم يستجب للحسين فيصحبه إلى يزيد .

ولقد كاد «ابن زياد» يجيب «عمر بن سعد» إلى ما عرض : ولقد رآه ابن زياد نصرا حاسما له أولا وليزيد ثانيا .
ولكنه قد فاته أنه إن هو أجاب فقد أعطى الحسين شيئا أراده ، فيه امتهان له وفيه إنصاف للحسين .

ولقد كان ابن زياد لهفا للنصر، فلم ينظر للأمر بعقله كله ، وكان إلى جنبه رجل هو — شمر بن ذى الجوشن — لم تغمره نشوة الفرح كما غمرت ابن زياد ، فينسى بها عقله وتدبيره فالتفت إلى ابن زياد وهو يقول له : أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك وإلى جنبك ، فلا تعطه هذه المنزلة فإنها من الوهن . ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه فإن عاقبت كنت ولى العقوبة ، وإن

عفوت كان ذلك لك .

وهكذا ردّ « ابن ذى الجوشن » ابن زياد إلى كل عقله وتمام تدبيره ، فلقد أراد الحسين — كما مر بك — أن يفوت على ابن زياد تشفيه فيه ، وأن يفوت عليه أن يكون حسم النزاع على يديه ، فيخرج من الأمر بنصف نخره ، أو دون هذا بكثير . وما يكاد ابن زياد يسمع من ابن ذى الجوشن قوله حتى يقول له : نِعْم ما رأيت . اخرج بهذا الكتاب إلى عمر بن سعد فليعرض على الحسين وأصحابه النزول على حكمى ، فإن فعلوا فليبعث بهم إلى سلما ، وإن أبوا فليقاتلهم .

ثم يحتاط « ابن زياد » لأمره : فلقد داخله من عمر بن سعد شيء ، فيقول لابن ذى الجوشن ، وإن فعل « عمر » فاسمع له وأطع ، وإن أبى فأنت الأمير عليه وعلى الناس واضرب عنقه وابعث إلىّ برأسه .

لقد كاد ابن زياد أن ينسى قسوته الفطرية بهـذا الظفر الذى لاح له فى الأفق فبدأ يلين شيئا ، ولقد عاد ابن زياد إلى قسوته كلها لم ينس منها شيئا حين قرت فى أذنه كلمة ابن ذى

الجوشن ، وهى لا تعنى المؤمنين الذين يعملون لأخراهم شيئا ، ولكن تعنى فى قلوب القساة الذين يعملون لدنياهم كل شىء .

من أجل ذلك ركب ابن زياد الطريق إلى دنيـــاه ولم يركب الطريق إلى أخراه ، ومن أجل ذلك تنكر ابن زياد لمن يشيرون عليه فى أخراه واستمع إلى من يشيرون عليه فى دنياه ، ومن أجل ذلك نسى « ابن زياد » « عمر بن سعد » وما بلغه من حسم للنزاع ، وذكر « ابن ذى » الجوشن وهـــو يدفعه إلى مالا تحمد عقباه ، ومن أجل ذلك أصبح « عمر بن سعد » لدى « ابن زياد » متهما ، وأصبح « ابن ذى الجوشن » ناصحا ، ومن أجل ذلك كان جزاء « عمر بن سعد » أن يقطع رأسه ، وكان جزاء « ابن ذى الجوشن » أن يكون له الأمر .

* * *

ولقد كان كتاب « ابن زياد » الذى حمله « ابن ذى الجوشن » إلى « عمر بن سعد » ينبئك بهذا كله ، فاقرأه معى لتعلم مبلغ الحقد من نفس « ابن زياد » فلقد كتب إليه يقول : « إنى لم أبعثك إلى الحسين لتكف عنه ، ولا لتمنيه ، ولا لتطاوله ، ولا لتقعد له عندى شافعا .

انظر فإن نزل « الحسين » وأصحابه على الحكم واستسلموا فأبعث بهم إلىّ سلما ، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فإنهم لذلك مستحقون . فإن قتل « الحسين » فأوطىء الخيل صدره وظهره فإنه عاقّ شاق ، قاطع ظـــلام ، فإن أنت مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع ، وإن أنت أبيت فاعتزل جندنا وخل بين « شمر » وبين العسكر .

* * *

ولقد كان « ابن زياد » فى كتابه هذا عنيفا بـ « عمر بن سعد » رابه ، فلقد جمع فى كتابه هذا إلى عنفه به مكره له ، فهو يعلم حُب « عمر » لدنياه ، فشفع عنفه بمكره ، وهو يؤمن أن « عمر » مغلوب على أمره بحبه لدنياه وأنه لا شك آخذ بما يريد منه ، ناس ما يريد هو ، ليضمن ما عند « ابن زياد » وما يعنيه أن يخسر ما عند الله .

ولكن « عمر بن سعد » كان موصولا يحب العافية بسبب ، وكان موصولا يحب الدنيا بأسباب ، ومضى حبه للدنيا يرخى يديه على هذا السبب ويشد يديه على تلك الأسباب .

لهذا التفت إلى « ابن ذى الجوشن » شبه مغضب يقول له : أفسدت علينا أمرا كنا رجونا أن يصلح والله ، فلن يستسلم « الحسين » أبدا ، والله إن نفس أبيه لبين جنبيه .

ولكنه حين يلتفت إليه « ابن ذى الجوشن » يقول له : وما أنت صانع .

فيحس « عمر » أن « ابن ذى الجوشن » يهدده بالذى يقول . هنا يذكر دنياه .

فيقول له : سأتولى ذلك .

وهو يعنى أنه ماضٍ كما قال « ابن زياد » .

٢٥

ويركب «عمر بن سعد» والناس معه فيشرفون على « الحسين » وهو جالس أمام خيمته وقد احتبى بسيفه و غلبه النعاس فأطرق برأسه .

وتسمع أخته زينب عجيج الجنـــد وصهيل الخيل وهي مقبلة فتسرع إلى أخيها « الحسين » فتوقظه وترفع رأسه .

وما تكاد عيناه تقعان عليها بعدأن أفاق ـ لا تعنيه هذه الخيل ومن عليها، ولكن يعنيه أن يقول لها ـ : إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام يقول لي : إنك تروح إلينا .

وتبكي أخته زينب وتكاد تخرج عن اطمئنانها وهي تقول : ياويلتاه .

فيلتفت إليها « الحسين » واجما، ولكنه غير هيّاب ولا وجل فيقول لها : ليس لك الويل يا أخيّة ، اسكتي رحمك الله .

ويلتفت إليه أخوه «العباس» ينهضه وهو يقول له: أتاك القوم يا أخي .

وينهض «الحسين» لا ليثيرها حربا؛ فلقد علم «الحسين» أنه لا قبل له بالقوم، ولا ليلق حربا فيما نظن، فلقد أعطى ما يدفع الحرب عن الناس ويرد الأمر أمنا بينهم.

لهذا هم «الحسين» أن يخلص إلى القوم يسألهم عن أمرهم فلم يكن يخشاهم بعد الذى أعطاهم.

ولكن أخاه «العباس» لا يدعه يخرج إليهم إذ هى فتنة والغدر من صفاتها. فركب هو إلى القوم ليعرف ما عندهم، ـ يجعل حياته بين حياة أخيه. ـ

ويلق «العباس» القوم فيقول لهم: مالكم؟ وما بدا لكم؟

* * *

ويرتد «العباس» ليخبر أخاه «الحسين» بما جد وبما يطلب «ابن زياد» وبما أرسل به رسوله «ابن ذى الجوشن» إلى «عمر بن سعد» وبما كان من «عمر بن سعد».

ويعود «العباس» إلى القوم ثانية يحمل إليهم جواب أخيه «الحسين» يستمهلهم إلى غد ليقضى فيما طلبوه منه برأى، إما أن يرضاه وإما أن يرده.

ولقد كاد «عمر بن سعد» أن يجيب «العباس» إلى ماطلب، ولكنه كان يعلم أن إلى جنبه «ابن ذى الجوشن» وكان يعلم أن الرأى رأى «ابن ذى الجوشن» لا رأيه، وكان يعلم أنه إن قضى بما يرى لا بما يراه «ابن ذى الجوشن» فقد ولت عنه دنياه العريضة التى طمع فيها. وربما ولت قبلها حياته العزيزة التى يحرص عليها.

لهذا التفت «عمر بن سعد» إلى «شمر بن ذى الجوشن» وهو يقول له: ماترى ياشمر.

و«شمر» ماكر هو الآخر، يريد أن يرخى لـ «عمر» حتى يتورط ورطة لا يقيله هو بعدها، ويكون له العذر عليه. فقال له: أنت الأمير فأقبل على الناس.

ويقبل عمر على الناس وفيهم من يرحم للضعيف ضعفه، وفيهم من يزيده ضعف الضعيف قسوة به.

فاستمع «عمر بن سعد» لـ «عمر بن الحجاج الزبيدى» وهو يشير ويقول:

«سبحان الله، والله لو كان «الحسين» من الديلم ثم سألكم هذه المسألة لكان ينبغى أن تجيبوه».

واستمع «عمر بن سعد» لقيس بن الأشعث » وهو يشير ويقول متهكما : أجبهم، لعمرى ليصبحنك بالقتال غدوة .

* * *

لكن « عمر بن سعد » قد وجد فى القوم من يعينه على نفسه الطامعة ،كما وجد فيهم من يعين نفسه الطامعة عليه، ولم يجد الناس فى جانب واحد ولكنه وجدهم على رأيين ، ولقد رأى نفسه وليس لابن ذى الجوشن عليه حجة إن هو أخذ بالرأى الذى يعين على نفسه الطامعة، فالتفت الى « قيس بن الأشعث» يقول له:لو أعلم أنهم يفعلون ما أخرتهم العشية .

ثم رجع عن « الحسين » ليلقاه الغداة اللقاء الأخير، إما على الاستجابة فسلم مهين، وإما على الرفض فحرب لا تعرف اللين ، كما أشار «ابن زياد» ،وكما سيشهد تفاصيلها «ابن ذى الجوشن» .

٢٦

نظر الحسين فى أمره كله فتدبره فإذا هو ضعيف لا حول له، وإذا هو رحيم بمن معه لا يريد أن يحملهم على الشطط، وإذا هو ينظر لخلاصهم قبل أن ينظر لخلاص نفسه .

لهذا جمع « الحسين » إليه أصحابه بعد أن رجع عنه « عمر بن سعد » يقول لهم : أثنى على الله أحسن الثناء وأحمده على السراء والضراء، اللهم إنى أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة وجعلت لنا أسماعا وأبصارا وأفئدة . وعلمتنا القرآن، وفقهتنا فى الدين، فاجعلنا لك من الشاكرين .

أما بعد « فإنى لا أعلم أصحابا أوفى ولا أخير من أصحابى، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتى، فجزاكم الله جميعا عنى خيرا .

ألا وإنى لأظن يومنا من هؤلاء الأعداء غدا ، وإنى قد أذنت لكم جميعا فانطلقوا فى حل ليس عليكم منى ذمام . هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملا . وليأخذ كل رجل منكم

بيد رجل من أهل بيتى فجزاكم الله جميعا خيرا ، ثم تفرقوا فى البلاد؛ فى سوادكم ومدائنكم حتى يأتى فرج الله، فإن القوم يطلبونى وإن أصابونى شغلوا عن طلب غيرى .

فيلتفت إخوته وأبناؤه وأبناء إخوته إليه يقولون : ولم نفعل هذا ؟ ألنبقى بعدك ؟ لا أرانا الله ذلك أبدا .

ويلتفت إليهم « الحسين » يقول لهم : حسبكم من القتل بـ « مسلم بن عقيل » ، ذهبوا فقد أذنت لكم .

فيقولون له : وما نقول للناس ، نقول تركنا شيخنا وسيدنا ولم نرم معه بسهم، ولم نطعن معه برمح ، ولم نضرب بسيف ، ولا ندرى ماصنع ، لا والله لانفعل ولكنا نفديك بأنفسنا ونقاتل معك حتى نرد موردك ، فقبح الله العيش بعدك .

ويقوم إليه « مسلم بن عوسجة الأسدى » فيقول له : أنحن نتخلى عنك ولم نعذر إلى الله فى أداء حقك ، أما والله لا أفارقك حتى أكسر فى صدورهم رمحى وأضربهم بسيفى ماثبت قائمه بيدى . والله لو لم يكن معى سلاحى لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك .

وكما تكلم أهل «الحسين» وتكلم «مسلم بن عوسجة» تكلم غيرهم فقالوا مثل كلامهم .

* * *

وهكذا أراد «الحسين» أن يخرج منها آخر الأمر لا عليه ولا له ، فأباها عليه «ابن زياد» بخطته تلك التى اختطها إمعانا فى إذلاله ، وأباها عليه قومه بهذا الذى قالوه له لم يرضوا أن تستذلهم الحياة ، ولا أن يستذلهم الناس ، ولا أن يستذلهم الخُلق الوضيع ، وهم سادة الدنيا وسادة الناس وسادة الخلق .

وهكذا لم يجد «الحسين» بدا من أن يخوض بهم الحرب ، التى كرهها أخيرا له ولهم ، بعد أن كان يحبها له ولهم .

ولقد كان «الحسين» حين أحب الحرب يملك عذره الأغر البين ، كما كان حين كرهها يملك عذره الأغر البين .

* * *

وما درى «ابن زياد» أنه لو أجاب «الحسين» إلى ما طلب لأعفى نفسه من إثم وأعفى الأمويين من شر . وأكاد أميل إلى أنه لو فعل كان مسلماً دعوة «الحسين» إلى هدأة وفتور وممكنا للأمويين

بينهم واغرائهم أن يزيدوا فى تلك الهدأة وذلك الفتور .

ولكن « ابن زياد » أبى إلا أن يمضى آثما، وأبى إلاّ أن يعنى الأمويين بمأثم هو فيه،وأبى إلا أن يثير بإثمه النفوس ، وأبى إلاّ أن يوقظ الشيعة على أعنف مما استيقظوا له أولا ، وأبى إلاّ أن يجمع بإثمه إلى الشيعة غيرهم ممن عز عليهم أن يمضى « الحسين » مقتولا ممثـــلا به .

٣٧

وما أن أصبح «الحسين» حتى عبأ أصحابه . ولئن سألتني كم كانوا؟! لأجبتك أنهم لم يكونوا غير اثنين وثلاثين فارسا وغير أربعين راجلا .

هكذا كان رجال «الحسين» أمام ألف سبقهم «الحر بن يزيد» وأمام أربعة آلاف انضموا إليهم وعليهم «عمر بن سعد»

ولقد أخذ «الحسين» ينظم من جيشه هذا الصغير بعدده؛ — الكثير بقلوبه، فجعل منه ميمنة وميسرة، وجعل على ميمنته رجلا، وجعل على ميسرته رجلا، وأعطى أخاه «العباس» رايته، وجعل البيوت من، وراء ظهره، وأمر بحطب وقصب فألقى في مكان منخفض من ورائه وأضرم فيه نارا لئلا يؤتوا من ظهورهم .

* * *

ولكن «الحسين» على ذلك كان مؤمنا بحتفه، وكان أصحابه على ذلك مؤمنين بحتفهم: ولكنه استشهاد في سبيل الحق فلم يخشوه،

واستشهاد في سبيل العزة فلم ينكلوا عنه ، واستشهاد في سبيل الخُلُق فهشوا له ولم يعبسوا .

فقد رووا أن « الحسين » وهو يطالع القوم دعا بطيب فتطيب ، فعل من يستعد للموت ، لا من يستعد للحرب ، فإذا أصحابه بين يديه يتسابقون إلى ما تطيب به لينالهم منه شيء ، وإذ لسان حالهم يقول : والله ما بيننا وبين الحور العين إلا أن يميل هؤلاء علينا بأسيافهم .

* * *

غير أن « الحسين » — على هذا كله — كان يحب أن يعذر إلى عدوه ، فوقف إليهم يقول :

« أيها الناس اسمعوا قولي ولا تعجلوني حتى أعظكم بما يجب لكم علي ، وحتى أعتذر لكم من مقدمي عليكم ، فإن قبلتم عذري وصدقتم قولي وأنصفتموني ؛ كنتم بذلك أسعد ، ولم يكن لكم علي سبيل .

ثم دنا منهم يقول :

أما بعد : فانسبوني فانظروا من أنا ثم راجعوا أنفسكم فعاتبوها ،

وانظروا هل يحل لكم قتلى وانتهاك حرمتى ؟ ... ألست ابن بنت نبيكم ، وابن وصيـــه ، وابنِ عمه ، وأول المؤمنين بالله والمصدق لرسول الله ؟ ؟ ...

أوليس حمزة سيد الشهداء عم أبى ؟ ... أوليس جعفر الشهيد الطيار فى الجنة عمى .

أما فى هذا حاجز يحجزكم عن سفك دمى ؟ ؟ .

وأحس « الحسين » من القوم ما يطمعه فيهم شيئا فازداد منهم قربا وهو يقول : فإن كنتم فى شك مما أقول أو تشكون فى أنى ابن بنت نبيكم؛ فوالله مابين المشرق والمغرب ابن بنت نبى غيرى منكم ولا من غيركم .

اخبرونى أتطلبوننى بقتيل منكم قتلته ، أو بمــال لكم استهلكته ، أو قصاص من جراحة ؟ ؟ ...

فسكت القوم لا يجيبون فدنا منهم شيئا وهو ينادى :

يا « شبث ابن ربعى » و « ياحجار بن أبجر » و « ياقيس بن الأشعث » و يا « زيد بن الحارث » ألم تكتبوا إلىّ فى القدوم عليكم .

فيقولون كلهم معا : لم نفعل .

هنا يرتد « الحسين » جزِعا وهو يقول : « بلى والله لقد فعلتم » .
وما كذب « الحسين » ولكن كذب هؤلاء ، فلقد قالوها له والدنيا فى ظنهم مواتية لـ « الحسين » وهم كاسبون . ولقد كذبوه فيها والدنيا منصرفة عنه إلى « ابن زياد » وهم لعقابه كارهون وفى مغنمه طامعون .

* * *

ويلتفت إليهم « الحسين » حزينا آسيا وهو يقول :
أيها النـــاس . إذْ كرهتمونى فدعونى أنصرف إلى مأمنى من الأرض .

٢٨

وإذا أحد هؤلاء الذين ناداهم «الحسين» بأسمائهم يشهدهم على أنفسهم، ويشهدهم على ماقالوا، يقول للحسين :

أولا تنزل على حكم ابن عمك ـ وهو يعنى «عبيدالله بن زياد» ـ فإنك لن ترى إلا ماتحب ؟

وما أسى «الحسين» لهذه كما أسى لإنكارهم، فهم حين أنكروا أنهم كتبوا إليه .قد أنكروا عليه ما يطلب من حق، لهذا لم يلتفت «الحسين» إلى «قيس» التفاتة الداعى لنصير من أنصاره، كما كان من قبل، وإنما أجابه بما يجيب العدو عدوه، ينذره المغبة، ويهدده بسوء العاقبة، فقال له :

«أتريد أن يطالبك بنو هاشم بأكثر من دم «مسلم بن عقيل» لا والله لا أعطيهم بيدى إعطاء الذليل، ولا أقر إقرار العبد .

ثم أناخ راحلته ونزل عنها وهو يقول : إنى عُذت بربى وربكم أن ترجمون، أعوذُ بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب .

وهكذا انتهى ما بين « الحسين » وبين القوم من كلام ، ولم يعد بينه وبينهم إلا شيء آخر ، استعد له « الحسين » فنزل عن راحلته، واستعد له هؤلاء النفر من حوله فتجمعوا حوله فى سلاحهم .

ولقد كانوا قلة لا يغنون عن أنفسهم ولا عن «الحسين » شيئاً ، ولكنهم كانوا أباة لن تمنعهم قلتهم أن يكونوا شيئاً ، وكانوا مع إبائهم ذوى فطن تقدر الأمور ، وذوى ألباب لا تحب أن تخالف عن أمر الله : «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة» .

وبرز من رجال « الحسين » « زهير بن القين » على فرسه وفى سلاحه ، لم يشأ أن يضعه عنه فيظن به وبأصحابه الخور ، ولم يشأ أن يدعو إلى قتال فيظن به التهور ، ولكنه وقف لمن أمامه من أهل الكوفة لينذرهم عذاب الله على ما اختانوا ، ويخوفهم غدر ابن زياد » بعد حين ، ويضرب لهم الأمثال بمن قتل منهم .

ولكنه ما كاد يفرغ حتى صاحوا به يذكرونه بالسوء ويذكرون ابن زياد » بالخير .

* * *

ولقد كان « الحسين » حين خطب القوم يبغى أن يردهم إلى

عقل ليسمعوا له ، وإلى روية ليملك مقادهم ، وإلى حجة ليضمنهم على الرأى ولا يتركونه إلى غيره .

ولكن «زهير بن القين» خطب القوم فردّهم إلى طيش لم يملكوا معه العقل ، وإلى نزق نسوا به الحلم ، وإلى هيج خرجوا به عن الرأى إلى غيره ، وإلى ما أبعد من هذا كله ثورة ، فإذا هم يقولون له :

والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه ، أو تبعث به وبأصحابه إلى الأمير «عبيد الله بن زياد» سلما .

وحين يلين «زهير بن القين» فى قوله لهم : ياعباد الله ، إن ولد فاطمة أحق بالود والنصر من «ابن سمية» ـ يعنى ابن زياد ـ فإن كنتم لم تنصروهم فأعيذكم بالله أن تقتلوهم . خلوا بين الرجل وبين ابن عمه «يزيد بن معاوية» فلعمرى إن «يزيد» ليرضى من طاعتكم بدون قتل «الحسين» .

حين يلين «زهير» هذا اللين لا يلقى من القوم لينا ، ولكنه يلقى منهم سهما يرميه به أحدهم وهو يقول له : اسكت ، أسكت الله نأمتك ، أبرمتنا بكثرة كلامك .

٭ ٭ ٭

والشر لجاج وتراشق بالألفاظ ما لم ترفع فيه يد ، أو يشهر سيف ، أو ينطلق سهم ، فإذا هو عجاج تصطك معه الأسنة ، وتتشاجر السهام ، وتتشابك السيوف .

كما حرك قول « زهير » النفوس فثارت ، وحرك هذا السهم النفوس فهاجت ، وتحرك القوم للقوم ، وما تحرك قوم « الحسين » ، ولكن تحرك قوم الكوفة ، فلقد هاجت نفوس الحسينيين فتحركت ألسنتهم بالفزع إلى الله ، وثارت نفوس الكوفيين ، فامتدت أيديهم إلى السيوف ، وإذا هم يزحفون ، وإذا على رأسهم « عمر بن سعد » هذا الذى بدأ يذكر العافية ويكاد يؤثرها ، ثم انتهى يؤثر الدنيا ولا يكاد ينساها .

ويفزع « الحر بن يزيد » لما رأى من عزم « عمر » وكان « الحر » قد بدأ كما بدأ « عمر بن سعد » يحب العافية ويرغب فيها ، وحين أوشكت دنياه تغلبه على عافيته فزع يعمل للعافية ، ولا يستجيب للدنيا .

وإذا هو ملتفت إلى « عمر بن سعد » ، يقول له : أصلحك الله ، أمقاتل أنت هذا الرجل ؟ ... فيقول له « عمر بن سعد » إى : والله

قتالا أيسره أن يسقط الرءوس ويطيح الأيدى .

فيقول له « الحر » : أفما لكم فى واحدة من الخصال التى عرض عليكم رضاً .

فيقول « عمر بن سعد » : والله لو كان الأمر إلى لفعلت ، ولكنّ أميرك قد أبى ذلك .

* * *

وكأنى بـ « عمر بن سعد » قد نسى أن يزيد فيقول : ومن يضمن لى الولاية على الرى .

هذه الولاية التى أنسته أن يستجيب للحسين فيأخذ بيده إلى « يزيد » فيضع لتلك الفتن حدا ينصف « الحسين » وينصف « يزيد » ، وما من شك فى أنها كانت ستمضى سلما ، يخرج منها « الحسين » ناجيا بحياته وإن لم ينج بما خرج يطلبه ، ويخرج منها أهل « الحسين » وغير أهل « الحسين » بحياتهم ، وإن لم يخرجوا منها بما ارتقبوا من مغنم .

ولكن قاتل الله الدنيا : كم تعمى وكم تصم ؟ ! وقاتل الله الشهوات ، كم تغلب على العقل والرأى ؟ ! وقاتل الله الطمع ، كم ينسى به الطامع

الأنفس غير نفسه .

* * *

وما يكاد « الحر » يسمع « عمر بن سعد » ويعرف ما انتواه ، حتى يردد فى نفسه : إنى والله أخيِّر نفسى بين الجنة والنار ، ولا أختار على الجنة شيئا ؛ ولو قطعت وحُرِّقت .

وإذا هذا الذى تردد فى نفسه يتحرك به لسانه ، ويسمعه عنه المحيطون به وقد أفصح ، وما دام قد أفصح فقد مَلَكَ الشجاعة على أن يفعل ، وقد ملك أن يميل إلى العافية وأن يميل عن الدنيا .

وهكذا ترك « الحر » « عمر بن سعد » إلى « الحسين » . ولم يشأ أن يأثم بحربه ، وإذا هو بين يدى « الحسين » يلقى معاذيره ويقول له :

« جعلنى الله فداك يابن رسول الله ، أنا صاحبك الذى حبستك عن الرجوع ، وسايرتك فى الطريق ، وجعجعت بك فى هـذا المـكان ، ووالله الذى لا إله إلا هو ، ما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضت عليهم أبدا ، ولا يبلغون منك هـــذه المنزلة أبدا ... وإنى قد جئتك تائبا مما كان منى إلى ربى ، مواسيا لك

بنفسى حتى أموت بين يديك ؛ أفترى ذلك توبة ؟ .»

فيقول له « الحسين » : نعم ... يتوب الله عليك و يغفر لك .

* * *

ولكن « الحر بن يزيد » على ذلك ؛ كان يرى أن الأمر أهون من أن يشعل حربا ، لو حفظ الناس على « الحسين » كرامته وإباءه ، وقبلوا منه ما عرض .

وكان « الحر » يطمع فى أن يؤثر القوم العافية إيثاره ، يطمع فى ذلك من « عمر بن سعد » أولا ، ثم يطمع فى ذلك من أهل الكوفة ثانيا .

وقد خبر « الحر » « عمر بن سعد » حينا ، فوجده ممسكا بحبلين ، أحدهما لدينه ، والآخر لدنياه ، يشد على الذى لدنياه يده ؛ ويرخى عن الذى لدينه يده الأخرى ، ولكنه على ذلك لا يفلته ؛ فطمع « الحر » فى أن يرد « عمر » أحرص على دينه من دنياه ؛ فاتجه إليه وإلى القوم يقول :

أيها القوم : « ألا تقبلون من « الحسين » خصلة من هذه الخصال التى عرض عليكم فيعافيكم الله من حربه وقتاله ؟

ولكن « الحر » قد نسى أن إلى جانب « عمر » رجلا آخر — هو : « شمر بن ذى الجوشن » — كان عليه وزر هذه الحرب كله ، وكان عينا لـ « ابن زياد » على « عمر » أو كان حريصا على أن يتراخى « عمر » فيضرب عنقه ويمضى هو بفخرها .

وقد نسى « الحر » أن « عمر بن سعد » كان ضنينا بدنياه ، قد جعل من وجود « شمر » إلى جواره عذرا له وسببا .

ولكن « الحر » إلى هذا كله كان طامعا فى هـــذا السبب الواهى الذى أحس شيئا منه فى نفس : « عمر » وهو رغبته فى العافية .

ولقد كان « عمر » كما هو ، رجل دنيا لا رجل دين ، لم يخيب ظن الذين عرفوه فيه ، وإن كان قد خيب ظن « الحر » ، حين التفت إليه يقول : لقد حرصت لو وجدت إلى ذلك سبيلا .

ولكن « الحر » الذى يئس من « عمر » لم ييأس من أهل الكوفة ، وإن لهم بـ « الحسين » لأسبابا قد يصلوها لو نبهوا إليها ، فالتفت إليهم بعد ما التفت عن « عمر » يقول لهم :

يأهل الكوفة . أدعوتموه حتى إذا أتاكم أسلمتموه ، وزعمتم

أنكم قاتلو أنفسكم دونه ثم عدوتم عليه لتقتلوه ؟

أمسكتم بنفسه ، وأحطتم به ، ومنعتموه من التوجه فى بلاد الله العريضة ، حتى يأمن ويأمن أهل بيته ، فأصبح كالأسير لا يملك لنفسه نفعا ولا يدفع عنها ضرا .

ومنعتموه ومن معه ماء الفرات الجارى تتمرغ فيه خنازير الوادى وكلابه ، وها هو وأهله قد ضرّ بهم العطش .

بئسما خلفتم محمدا فى ذريته ، لاسقاكم الله يوم الظمأ إن لم تتوبوا وتنزعوا عما أنتم عليه .

☆ ☆ ☆

ولكن النفوس كانت قد استقرت على شىء ، نفوس القادة ونفوس الجند ، فلم يعد هناك آذان تسمع ، ولا أفئدة تعى ، ولا قلوب تتدبر .

من أجل هــــذا لم يكن جواب « الحر » إلا النبل يرمونه به ، وارتد على عقبه يقف أمام « الحسين » يكون له ردءا .

وكأنى بـ « عمر بن سعد » قدطال عليه انتظاره ، وكأنى به أحس

شوقا إلى ولاية التى وعده بها « عبيد الله بن زياد »، وكأنى به قد عجل ليفرغ من شىء إلى شىء ، وكأنى به قد خلع عنه العافية جانبا ولبس ثياب الدنيا ، فإذا هو أول داع إلى الحرب ، وإذا هو أول رام فى تلك الحرب ، وإذا هو يشهد على نفسه لتبلغ « ابن زياد » ، ولا يفعلها مستورة فيضيع عليه أجرها . فلقد حكوا عنه أنه أخذ سهما فرمى به ، ثم قال : اشهدوا لى أنى أول رام .

* * *

وما كانت حربا فيها التكافؤ فيساق لها خبر وعنها حديث ؛ غير أن تلك القلة القليلة التى كانت مع « الحسين » قد استبسلت الاستبسال كله ، ووضعوا أنفسهم دون نفس « الحسين » ، يتخطفهم القتل واحدا بعد واحد ، لا يحزنون على أن قتلوا ، ولكن يحزنهم أنهم مضوا عن « الحسين » وتركوه دون نصير ، ولمصير كهذا المصير . .

يُصاب « مسلم بن عوسجة الأسدى » — وكان من أنصار « الحسين » — إصابة قاتلة ، فيدنو منه « حبيب بن مطهر » —

وكان من أنصار « الحسين » — يقول له : عزّ عليّ مصرعك . أبشر بالجنة ، ولولا أني أعلم أني في إثرك لاحق بك لأحببت أن توصيني .

* * *

فيقول له « مسلم » — رحمه الله — أوصيك بهذا — وأومأ بيده نحو « الحسين » — أن تموت دونه .

تلك واحدة تدلك على كثيرات غيرها حملتها نفوس أصحاب « الحسين » واستقبلوا بها عدوهم فاستعصوا عليه على قِلّتهم ، لا يبرز منهم واحد إلا قتل من يبرز له .

ولقد فزّعوا خصمهم على كثرته ، فإذا هــذا الخصم يدبر أمره ويرتد مفكرا ، وكان هذا أولى بتلك القلة التي حول « الحسين » .

فإذا « عمرو بن الحجاج » — وهو من فرسان « عمر بن سعد » — يصيح بالناس وهو يقول : أتدرون من تقاتلون ؟ فرسان المصر ، قوما مستميتين ، لا يبرز إليهم منكم أحــد ؛ فإنهم قليل وقلما يبقــون . والله لو لم ترموهم إلا

بالحجارة لقتلتموهم .

وما يكاد « عمر بن سعد » يسمعها حتى يحس الراحة ، فيقول له : الرأى ما رأيت ، ثم منع الناس من المبارزة .

* * *

٣٩

وقاتل أصحاب « الحسين » قتـــالا شديدا ، ولم يكونوا غير اثنين وثلاثين فارسا ، لا يحملون على جانب من خيل الكوفة إلاَّ كشفوه .

ويجمع لهم « عمر بن سعد » خمسمائة من الرماة ، يرشقونهم بالنبل ، وما ظنك باثنين وثلاثين فارسا تلقاه خمسمائة رام ، فما كاد هؤلاء الرماة يرمون حتى عقروا الخيول كلها ، وإذا هؤلاء الفرسان على أرجلهم وقد فقدوا خيولهم .

وعلى الرغم من ذلك فقد قاتل هؤلاء الفرسان الاثنان والثلاثون قتالا شديداً ، قاتلوا من مطلع الشمس إلى أن انتصف النهار ، يجعلون مضاربهم وراء ظهورهم ، يحتمون بها ولا يقاتلون إلا من وجه واحد .

ويأمر « عمر بن سعد » بهذه البيوت فتحرق ، ويمضى « شمر » حتى يدنو من بيت « الحسين » فينادى : علىَّ بالنار حتى أحرق هذا البيت على أهله ، فيصيح به النساء ، ويصيح به « الحسين » ويصيح

به غير واحد ممن معه ، فيثنى بعد لأى .

* * *

وتكاثروا على « الحسين » وأصحـــابه ، ورأى أصحاب « الحسين » أنهم غير قادرين عليهم ، وأنهم غير قادرين على أن يمنعوا « الحسين » ولا أن يمنعوا أنفسهم ، فالتفوا بـ « الحسين » يتنافسون فى أن يقتلوا بين يديه .

واشتد بـ « الحسين » عطشه ، فدنا من الفرات ليشرب ، فرماه أحدهم بسهم ، فوقع فى فمه ، فاختلط ما يشرب من ماء الفرات بدمه .

ويقبل « شمر بن ذى الجوشن » فى نفر من رجاله فيحيطون بـ « الحسين » ، ويهوى رجل منهم — أحب أن تعرفه باسمه ؛ فلقد كان « بحر بن كعب بن تيم الله بن ثعلبة » — إلى « الحسين » بالسيف ، فيصيح به غلام من أهل « الحسين » كان إلى جنبه : فيقول له : أتقتل عمى ؟ .

فيهوى « بحر » بالسيف يريد الغـــلام ، فيتقيه الغلام بيده ، فيقطعها « بحر » ، ويصيح الغلام باكيا ، فيضمه إليه « الحسين »

وهو يقول له : اصبر يابن أخى على مانزل بك .

وينكشف مَن حول « الحسين » من أصحابه عنه من حر الضرب ، ويبقى « الحسين » فى ثلاثة أو أربعة . و « الحسين » يحمل على الذين عن يمينه ، ويحمل على الذين عن يساره ، ينكشف هؤلاء عنه إذا حمل ، وينكشف هؤلاء عنه إذا حمل ، كأنهم المعزى قد شد فيها الذئب .

ولو شاء الناس أن يقتلوه لقتلوه ، ولكنهم كان يتقى بعضهم ببعض ، ويحب هؤلاء أن يكفيهم هؤلاء .

« والحسين » بينهم ينادى : أعلى قتلى تجتمعون ؟ أما والله لا تقتلون بعدى عبدا من عباد الله أسخط عليكم لقتله منى .

وينادى « شمر » فى الناس : ويحكم ، ماذا تنتظرون بالرجل ، اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم .

وكما خاف « عمر بن سعد » « شمر بن ذى الجوشن » خافه هؤلاء القوم ، وكان لهم فى قائدهم « عمر » أسوة ، فحملوا جميعهم على « الحسين » .

يضربه « زرعة بن شريك التميمى » على كفه اليسرى ،

ويضربه على عاتقه ، ثم انفرجوا عنه قليلا ، وهو يقوم ويكبو

ويحمل عليه « سنان بن أنس النخعى » وهو على حاله تلك ، فيطعنه بالرمح فيقع على الأرض .

ويصيح « سنان بن أنس » برجل إلى جانبه هو « خولى بن يزيد الأصبحى » ليحتز رأسه . ويحاول « خولىٌ » أن يفعل ، فترعد يداه .

فينزل « سنان » عن فرسه ، وهو يلعن « خولى بن يزيد » ويجثم على « الحسين » يذبحه ويحتز رأسه ، ويدفع بالرأس إلى « خولى »

وإذا هم بعد هذا كله يسلبون « الحسين » ما عليه ، فيأخذ « بحر » سراويله ، ويأخذ « قيس بن الأشعث » قطيفته ، ويأخذ « الأسود الأزدى » نعليه ، ويأخذ رجل من دارم سيفه ، ويميل نفر على الفرش والحلل والإبل فينتهبونها .

ألم يأمرهم أن يفعلوا هذا وغيره « ابن زياد » ؟ وهل منهم من أحد إلا وقد ملأ قلبه خوف « ابن زياد » ؟ وهل منهم من أحد إلا وهو راغب فيما عند « ابن زياد » .

ولكن أين القلوب التى آزرت « الحسين » ؟ مابالها قد فقدت الرحمة حين ملأها الخوف والطمع ؟ وما بالها قد أنسيت أن من

قتلت « ابن بنت رسول الله » ؟ وما بالها قد أنسيت أن من تمثل به رجلهم الذى اتفقوا به من قبل .

ولكنك لا تنس أن الآثمين أحاد ، وأن الكثرة المشاركة كانت مسوقة إلى حرب لم يبلغ الظن بها أن تسف إلى هذا .

فلقد كان هينا عليهم شيئا أن يمضى « الحسين » مقتولا ، وأن ينال مالا يحصى من الطعنات والضربات ، ولكن لم يكن هينا عليهم أن يُقطع رأسه ، وأن يُمثل به ، وأن يُسلب ما عليه من ثياب على هذه الصورة المعيبة .

* * *

٣٠

ولكنا قبل أن نُسدل الستار على مقتل «الحسين» نحب أن نعود قليــــلا إلى «عمر بن سعد» الذى غلبته دنياه على قلبه .
وما نحب أن نعود إليه بعدما سقنا لك ما كان إلا لنذكر له ماأعطى إلى جانب ما أخذ ، ولقد كان ما أعطاه لـ «الحسين» قليلا بجانب ما غلبه عليه ، ولو أن أمره مضى على غير هذا ، ورجح ما أعطى ما أخذ ، لخرج «الحسين» من هذه الفتنة موفور الكرامة موفرة عليه حياته .

ولكن هكذا أراد الله لـ «عمـــر» ، وهكذا أراد الله لـ «الحسين» .

غير أن «عمر بن سعد» هذا الذى كان أول رام وقال للناس اشهدوا .

و «عمر بن سعد» هذا الذى حرّق على أهل «الحسين» بيوتهم .

و «عمر بن سعد» هذا الذى صال فى هذه الحرب وجال .

هو « عمر بن سعد » الذى وقف يبكى لما انكشف « الحسين » وأحاط به الناس يطعنونه ويضربونه؛ حتى بل دمعه خديه ولحيته؛ وذلك حين دنت منه « زينب » تقول له: يا عمر، أيقتيل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه .

وهو أيضا « عمر بن سعد » الذى وقف للنـــاس بعد مقتل « الحسين » وهو يدفع عن بيت « الحسين » ويقول : لا يدخلن بيت هؤلاء النسوة أحـــد ، ومن أخذ من متاعهن شيئا فلـــيرده .

وهو أيضا « عمر بن سعد » الذى حذف « سنان بن أنس » قاتل « الحسين » بالقضيب حين وقف على باب فسطاطه ، وهو ينشد :

أوفو ركابى فضة وذهبا ... إنى قتلت السيد المحجبا
قتلت خير الناس أما وأبا ... وخيرهم إذ ينسبون نسبا

وهو أيضا « عمر بن سعد » الذى خلى سبيـــل « عقبة بن سمعان » مولى « الرباب » امرأة « الحسين » وكان ثانى اثنين نجوا من تلك الحرب .

ولكنه كان أيضا بعد هذا كله « عمر بن سعد » الذى نادى في أصحابه بعد مقتل « الحسين » : من ينتدب إلى « الحسين » فيوطئه فرسه ، فانتدب عشرة ، فداسو « الحسين » بخيولهم حتى رضّوا ظهره وصدره .

نعم كان « عمر بن سعد » هو الذى فعل هذا وهذا ، خاف « ابنَ زياد » وطمع فيه ، فوفى له بكل ما طلب منه جهره وعلى رءوس الأشهاد .

وذكر دينه وما يجب عليه من حرمة نحو « الحسين » وآله ، ففعل ما فعل تنفيسا عما يكن وكان عليه مرغما .

وماضرحياة ، الناس وأفسدهاعليهم إلاأمثال «عمر بن سعد» ، يدخلونها على الناس وهم قادة وإليهم الأمر والناس لهم يطيعون ، فإذا هم يركبون بالناس مثل هذا المركب الوعرالخشن ، وإذاهم ، مع الناس خاسرون .

ولكن ما يخسره الناس معوضوه بعد حين — يقصر و يطول — حين يعلمون أن قادتهم لم يحسنوا قيادتهم وحمّلوهم شططا .

أما مايخسره القادة فهم غير معوضيه ، فإنهم لاشك ماضون ، بالخزى الباقى والعار الدائم والسبة التى لاتنمحى .

والناس لاشك مفيدون — إلى جانب ما أفادوا — من هذا الخزى وذاك العار وتلك السبة عظات كثيرة .

ويحمل رأس « الحسين » إلى « ابن زياد » « خولى بن يزيد » . وما أظنك نسيت « خولى بن يزيد » ، فيجد « خولى » ، قصر « ابن زياد » مغلقا ، فيمضى برأس « الحسين » إلى منزله ، فيضع الرأس تحت إجانة ، ويدخل إلى امرأته « النوار » هاشّا باشّا يقول لها : جئتك بغنى الدهر ، هذا رأس « الحسين » معك فى الدار .

فتقول له « النوار » امرأته : ويلك ، جاء الناس بالذهب والفضة ، وجئت برأس ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله لايجمع رأسى ورأسك بيت أبدا ، ثم تخرج عنه .

هذا مال بنى أمية يغريه ، وجاه الدنيا يعميه ، وتلك يردها إلى الصواب حب لرسول الله وحب لبنيه .

ولقد كان المغرورون المخدوعون كثرة، وكان جُرم القتل كبيرا، وشناعته مفظعة، فآب هؤلاء المغرورون المخدوعون بعد حين قلة. وآب جرم القتل حديث القلوب أولا، ثم حديث الألسن ثانيا، ثم انتقل هذا الحديث إلى الأيدى فعلا وعملا، بما ستعرف خبره بعد حين قليل.

* * *

فلقد جلس «ابن زياد» ورأس «الحسين» بين يديه، وهو ينكث بقضيب بين ثنيتيه ساعة، فيثور به «زيد بن الأرقم» وهو يقول له: ارفع هذا القضيب عن هاتين الشفتين، فوالذى لا إله غيره، لقد رأيت شفتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على هاتين الشفتين تقبلهما!... ثم بكى.

وهكذا رأى «ابن زياد» الشر الذى أراد أن يقضى عليه بالقضاء على «الحسين» يطل برأسه مرة ثانية، وكما لم ينس «ابن زياد» شدته فى الأولى، لم ينسها فى الثانيــــة، فالتفت إلى «زيد بن الأرقم» يقول له: أبكى الله عينيك، فوالله لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك.

فخرج عنه « ابن الأرقم » وهو يقول : أنتم يامعشر العرب العبيد بعد اليوم : قتلتم ابن فاطمة ، وأمّرتم « ابن مرجانة » — يعني « ابن زياد » — فهو يقتل خياركم ، ويستعبد شراركم ، فرضيتم بالذل : فبعدا لمن يرضى بالذل .

* * *

ولقد جلس « ابن زياد » لآل « الحسين » من نسائه ، حين جلسن بين يديه ، و « زينب » أخت « الحسين » في أرذل ثيابها متنكرة . فيقول « ابن زياد » : من هذه الجالسة ؟ فلا تكلمه يقولها ثلاثا وهي لا تكلمه .

فتقول أَمَة من إمائها : هذه « زينب بنت فاطمة » .

فيقول لها « ابن زياد » : الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وكذب أحدوثتكم .

فتقول له «زينب» : الحمدلله الذي أكرمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم وطهرنا تطهيرا ، لا كما تقول أنت ، وإنما يُفتضح الفاسق ويكذب الفاجر .

فيقول لها « ابن زياد » : فكيف رأيتِ صُنْع الله

بأهل بيتك ؟ ...

فتقول له « زينب » : كتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتختصمون عنده .

ثم ينظر « ابن زياد » إلى « على بن الحسين » ، فيقول له : ما اسمك ؟ ...

فيقول : « على بن الحسين » .

فيقول « ابن زياد » : أولم يقتل الله « علىَّ بن الحسين » ؟

فيسكت « على بن الحسين » .

فيقول له « ابن زياد » : مالك لا تتكلم ؟ .

فيقول « على بن الحسين » : الله يتوفى الأنفس حين موتها » وما كان لنفس أن تموت إلاّ بإذن الله .

فيقول له « ابن زياد » : أنت والله منهم .

ثم يلتفت « ابن زياد » : إلى رجل بجواره ، فيقول له : اقتـــله ؟ ...

* * *

وينادى منادى « ابن زياد » فى الناس ، فيجتمعوا فى المسجد ،

ويصعد « ابن زياد » المنبر يخطب الناس فيقول :

الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين « يزيد » وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب « الحسين بن على » وشيعته .

فيثب إليه « عبد الله بن عفيف الأزدى » فيقول له : يابن مرجانة ، إن الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك ، والذى ولاك وأبوه .

يابن مرجانه ، أتقتلون أبناء النبيين وتتكلمون بكلام الصديقين .

فيقول « ابن زياد » : علىّ به .

فيثور معه « الأزديون » ويحملونه إلى داره ، فيرسل « ابن زياد » من يأتيه به ، ثم يأمر به فيقتل ، ثم يأمر به فيصلب فى المسجد .

* * *

وهكذا دخل « ابن زياد » بالذى ارتكب من غلطة ، فى الشرّ الذى أراد أن يخرج منه .

وهكذا مضت هذه الثورات الصغيرة لمقتل « الحسين » تهيء لثورات كبيرة .

وهكذا أفسد « ابن زياد » على الأمويين أمرهم الذى انتدبوه له ليصلحه .

وهكذا مضى « ابن زياد » يخرج من عنف ليدخل فى عنف ، ويترك قسوة لترتكب أخرى .

فقد أمر « ابن زياد » برأس « الحسين » أن يحمل على خشبة فيطاف به فى الكوفة ، يظن أنه يلقى الرعب فى القلوب ، وقد ألقاه حقا كما ظن ؛ ولكنه ألقى إلى جانبه الأسى للمقتول ، والحسرة على التفريط فى نصره ، وهيأ هذه القلوب لشر كبير .

* * *

ولقد أدرك « يزيد » ما جره عليه « ابن زياد » حين دخل الرسول ينبئه بما كان منهم نحو « الحسين » وآله ، يزوّر له فى العبارة ، ويجود فى الكلام ، يبغى أن يسره ويدخل البشر عليه .

فإذا « يزيد » تدمع عيناه ، وإذا هو يقول لهذا الرسول : كنت أرضى من طاعتكم بدون قتـــل « الحسين » لعن الله

ابن سمية ، أما والله لو أنى صاحبه لعفوت عنـــه . فرحم الله « الحسين » ، وما وصل ذلك الرسول بشىء على بشراه .

* * *

ألا ليت «عمر بن سعد» كان حاضرهما ليسمعها من « يزيد » . ثم ألا ليت « عمر بن سعد » أدرك أنه كان مدركا عند « يزيد » فوق ما كان يرجو عند « ابن زياد » ، دون أن يأثم أو يجر على نفسه ، وعلى الأمويين شرا .

٣١

وهكذا استقبل الأمويون بمقتل « الحسين » شيئاً جديداً ، فلقد كادت الأمور تستقيم لهم بنزول « الحسن » عن حقه ، ولقد كادت الأمور تستقيم لهم حين رغب « الحسين » فى أن يلقى « يزيد » ، وهو حين يلقاه - لو تم له ما طلب - كان لاشك معطيا ما أعطى « الحسن » أو معطيا شيئا قريبا منه ، يسد على الأمويين باب الفتنة ، ويُسكت الداعين ويردهم إلى نوع من السكون ، ولقد كان الأمويون قادرين - فى ظل هذا السكون - على أن يمضوا فى إغرائهم - وهم يملكون خزائن الأرض - فيجمعوا الناس حولهم ، وهم لاشك كاسبون فى ظل الأمن ؛ - إذ هم يملكون الأسباب التى بها تُشترى النفوس ، وتصرف القلوب : على حين كان « الحسين » وآله لا يملكون منها إلا القليل ، وهم لاشك كاسبون فى ظل هذا الأمن لأنهم لن يعطوا خصومهم ما يثيرون به القلوب عليهم ، وهم لاشك كاسبون فى ظل هذا الأمن وتلك الموادعة التى رغب فيها « الحسين » ولم يُجب إليها ، لأن الشيعة لم ينفروا مع

«الحسين» إلا حين رأوه ثائرا لحقه ، رافضا أن يعطى «يزيد» ، وهم حين يرون «الحسين» يوادع «وادعون» .

ولقد كان غير «الحسين» من آله لا تمتلأ قلوبهم الحمية التي ملأت قلبه ، ولقد كان إرضاؤهم ليس بالشيء العسير على الأمويين لو أرادوه ، ولقد كان صرفهم عن «الحسين» وضمهم إلى «يزيد» يسيرا على «يزيد» لو لم تجر الأمور على هذا النحو الذي جرت عليه . وانتهت بمقتل «الحسين» على تلك الصورة المفزعة .

* * *

لهذا ارتد الشيعة إلى أقوى ما كانوا عليه حياة «الحسين» وارتد آل «الحسين» أطمع ما يكونون فيما كادوا ينزلون عنه .

فلقد امتلأت قلوب الشيعة حسرة على ما فرطوا فيه ، وألما على تخاذلهم ، وكادوا يعدون أنفسهم شركاء في إهدار دم «الحسين» .

ولقد صحا آل «الحسين» على مقتل «الحسين» صحوة قوية

عنيفة ، يذكيها الثأر ، وما خلصت نفوسهم منه ، ويذكيها تهيؤ الشيعة لجديد من الأمر ، ويذكيها غضب الناس من حولهم ممن ليسوا بشيعة ولا أهل .

وهكذا خرج آل « الحسين » من مقتل « الحسين » بحافزات أربع :

فلقد كسبوا الشيعة بعد أن كاد « الحسين » يخسرهم .

ولقد كسبوا أنصاراً آخرين كانوا عنهم بمعزل .

ولقد كسبوا هم أنفسهم بعد أن كادت تهون وتلين .

ولقد كسبوا شيئاً آخر كان له خطره ، وكان لا يقل شأناً عن هذه الثلاثة الأولى ، فلقد كسبوا حجة على الأمويين فيما ارتكبوا من عنف وغلظة ، كانت في يدهم أقوى سلاح وأمضاه ، كلما لانت للقلوب حركوها بها ، ألا وهي مقتل « الحسين » .

☆ ☆ ☆

أحسها « يزيد » لاذعة موهنة حين بلغه ما فعل « ابن زياد » فقال :

ما عليّ لو احتملت الأذى وأنزلت « الحسين » معي في داري

وحكمته فيما يريد ، وإن كان علىّ فى ذلك وهن فى سلطانى ، حفظا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورعاية لحقه وقرابته ، لعن الله « ابن مرجانة » فإنه اضطره ، وقد سأله أن يضع يده فى يدى ، أو يلحق بثغر حتى يتوفاه الله ، فلم يجبه إلى ذلك فقتله ، فبغضنى بقتله إلى المسلمين ، وزرع فى قلوبهم العداوة ، فأبغضنى البر والفاجر ، بما استعظموه من قتل « الحسين » ، ما لى ولابن مرجانة لعنه الله وغضب عليه .

أما والله لو أنى صاحبه ماسألنى خصلة أبداً إلا أعطيته إياها ، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ، ولو بهلاك بعض ولدى ، ولكن قضى الله .

. . .

وأحسها المروانيون من حول « يزيد » حين حُمل رأس « الحسين » إلى الشام .

فلقد جاء القومَ « مروانُ بن الحكم » يسألهم : ماصنعوا ، فلما علم ماكان انصرف عنهم مغضبا .

ولقد جاءهم « يحى بن الحكم » يسألهم هو الآخر : ماصنعوا .

فلما علم ما عندهم : انصرف عنهم مغضبا وهو يقول : لن أجامعكم على أمر أبدا .

ودخل على « يزيد » وهو ينشد :

نَهام (١) بجنب الطف أدنى قرابة
من ابن زياد العبد ذى الحسب الوغل

سمية أمسى نسلها عدد الحصى
وليس لآل المصطفى اليوم من نسل

ولقد بكت « الحسين » نساء المروانيين مع رجالهم ، ونحن عليه ، وأقمن المأتم .

• • •

وإذا تركنا الشام معقل الأمويين إلى غيرها ، رأينا البلبله التى ملكت على الأمويين ، وعلى غير الأمويين ألبابهم ، قد ملكت الباب أهل المدينة ففزّعتهم ، ولسان حالهم ينشد :

أيها القاتلون جهلا حسينا
أبشروا بالعذاب والتنكيل

---

١ — الهام : الرأس .

كل أهل السماء يدعو عليكم

من نبي ومَلْأك وقبيل

قد لعنتم على لسان ابن داو

د وموسى وصاحبِ الإنجيل

وإذ ما تركنا الشام والمدينة إلى غيرهما رأينا الناس موطين مهمومين، قد امتلأت قلوبهم حسرة وأسى.

٣٢

وما قُتل « الحسين » وحده فى هذه الفتنة ، فيهون الأمر شيئا على ذويه أولا ، وعلى المسلمين ثانيا ، وعلى الشيعة ثالثا ، ولكنه قتل إلى جانبه فى هـذه الفتنة كل من كان معه من آله :

قُتل « العباس بن على » ، وقُتل « جعفر بن على » ، وقُتل « عبد الله بن على » ، وقتل « عثمان بن على » ، وقُتل « محمد بن على » ، وقُتل « أبو بكر بن على » ، وقُتل « على بن الحسين بن على » ، وقتل « عبدالله بن الحسين بن على » ، وقتل « أبو بكر بن الحسين بن على » ، وقُتل « القاسم بن الحسين ابن على » ، وقُتل « عون بن جعفر بن أبى طالب » ، وقتل « محمد بن عبد الله بن جعفر » ، وقتل « جعفر بن عقيل ابن أبى طالب » ، وقُتل « عبد الرحمن بن عقيل » ، وقُتل « عبد الله بن عقيل » ، وقُتل « مسلم بن عقيل » ، وقُتل « عبدالله بن مسلم بن عقيل » ، وقتل « محمد بن أبى سعيد بن عقيل »

وقتل من مواليهم : « سليم » مولى « الحسين » ، وقتل « منجح » ، مولى « الحسين » ، وقتل « عبد الله بن بقطر » ، رضيع « الحسين » .

واستصغروا « الحسن بن الحسن بن على » ، و « عمرو بن الحسن » ، فلم يقتلوهما .

* * *

وهكذا كانت حربَ استئصال - كما رأيت - لم يبق فيها « ابن زياد » ولم يذر .

وصدق « يحي بن الحكم » ، حين قال :

سمية أمسى نسلها عـــدد الحصى

وليس لآل المصطفى اليوم من نسل

* * *

وإن الحجة التي ملـكها « ابن زياد » للناس على ، الأمويين ، وعلى رأسهم « يزيد » ، ملـكها « ابن زياد » للناس عليه ، فإذا هو الآخر يريد أن يخلص من إثمها ، كما أراد « يزيد » أن يخلص من إثمها ، وإذا « ابن زياد » يرى « يزيد » قد ملك « عذره »

وحمّله هو تبعتها ، فنجا « يزيد » — فيما ظن « ابن زياد » — من شرها ليتقبل خيرها ، وآب « ابن زياد » بشرها وهو فى شك من خيرها .

عندها ارتد « ابن زياد » يفكر ، وماله هو الآخر لا يكون له عذر « يزيد » ، على الناس ، وماله هو الآخر لا يحمّل تبعتها « عمر بن سعد » فينجو كما نجا « يزيد » من إثمها ، ويحمّله كاله كاملا « عمرَ بن سعد » .

من أجل ذلك دعا « ابن زياد » إليه « عمر بن سعد » يسأله أن يأتيه بالكتاب الذى كتبه إليه فى قتل « الحسين » .

وهنا يدرك « عمر بن سعد » ما يُراد به ، وينسى ما عند « ابن زياد » بما عند الله ، وينسى لذة المطمع بمرارة الغدر ، وينسى هذه الدنيا بحقد الناس عليه ، فيلتفت إلى « ابن زياد » يقول له : مضيت لأمرك وضاع الكتاب .

ويعرف « ابن زياد » أن « عمر بن سعد » يمكر به ، وأن كتابا كهذا ان يفرط فيه « عمر بن سعد » ويعرف أن الكتاب لا زال فى يد « عمر بن سعد » يحتفظ به ، فيسأل

ويلح فى السؤال .

وإذا كان « عمر بن سعد » قد خانه وفاؤه ، فلن يخونه دهاؤه ، وإذا كانت الدنيا قد غلبته على أمره مرة فلن تغلبه أخرى ، وإذا كان لم يقدر لأمره من قبل يرووده الصواب ؛ فما أولاه أن يقدر له اليوم والصواب رائده ، ثم ماله هو الآخر لا يخرج من الفتنة وله عذره ، وليدع « ابن زياد » يخرج بإثمها كله ، كما فعل به « يزيد » ، وما عليه أن يخسر ما عند « ابن زياد » فلقد رآه ، شيئا لا يغنى إزاء ما هو لاق على ألسنة الناس وزارع فى قلوبهم .

لهذا التفت « عمر بن سعد » إلى « ابن زياد » يقول له : تركته والله يُقرأ على عجائز قريش بالمدينة اعتذاراً إليهن .

أما والله لقد نصحتك فى « الحسين » نصيحة لو نصحتها أبى « سعد بن أبى وقاص » لكنت قد أديت حقه .

وهكذا خرج « ابن زياد » وآله بإثمها كله ، فيما ظن « يزيد » ، وفيما ظن « عمر بن سعد » . ولقد صدق « عثمان » أخو « ابن زياد » حين قال وهو يعقب على كلام « عمر بن سعد » : صدق ؛ والله لوددت أنه ليس من بنى زياد رجل إلا وفى أنفه خزامة إلى يوم

القيامة ، وأن « الحسين » لم يقتل .

* * *

وليحمل « ابن زياد » إثم قتـــل « الحسين » ، وليحمل « عمر بن سعد » إثم قتل « الحسين » أو لا يحمله ، وليخرج « يزيد » من هذا الإثم بما بداله .

ولكن « قتل « الحسين » وآله ، لم يكن شيئا يبحث فيه عن القاتل ليقتص منه ، ولم يكن شيئا يعذر فيه القاتلون إلى الناس ، ولكنه كان جرحا لا يندمل ، وكان شرًّا لا تهدأ ثائرته ، وكان فتنة ظن الأمويون أنهم قادرون عليها أول الأمر ، فإذا هي فتنة هم عاجزون عنها آخر الأمر .

وكما لم يسكت الأمويون مع مقتل « عثمان » وهبوا يطالبون بقاتليه ، واتخذوا من ذلك وسيلتهم لحرب « علي » .

كذلك لم يسكت الهاشميون عن المطالبة بدم « الحسين » وهبوا يطالبون بقاتليه .

ولقد كان قاتلو « عثمان » حفنة من الناس لم تتبين حالهم ، وكانت المطالبة بهم لا تضير كثيرا ، وهي مع ذلك أعطت الأمويين

أسباب الغلبة ، وأثارت سخط الناس .

وكان قاتلو « الحسين » عمالا للأمويين وقادة ، لم تغب حالهم ، وكانوا فى ذلك القتل عامدين قاصدين مدبرين ، وكانت المطالبة بدمه تطلب الخروج على الدولة الأموية ، والثورة بها والسعى لزعزعتها ؛ لذلك دبر الهاشميون ، وبثوا دعاتهم ، لينتصفوا لأنفسهم ، ولينالوا من عدوهم ، ترهبهم قوة الأمويين فيلينون شيئا ، ولكنهم على ذلك لم ينسوا ، وظلوا يناوئونهم حتى يكتب لهم النصر آخر الأمر ، يزيدهم ضعف الدولة الأموية قوة ، ويزيدهم التفاف الناس حول دعاتهم قوة ، ويزيدهم أن الناس لم ينسوا مقتل « الحسين » وآله قوة ، وإذا هم آخر الأمر يغلبون الأمويين على أمرهم .

وكما دخل الأمويون إلى الحكم بدم « عثمان » دخل الهاشميون إلى الحكم بدم « الحسين » ؛ مع فرق بين الحالين :

فقد سعى الأمويون إلى الحكم فاستخلصوه لأنفسهم ، دون أن يخسروا فيه إلا دم « عثمان » .

ولقد سعى آل أبى طالب بن عبد المطلب إلى الحكم

يستخلصوه لأنفسهم ، فإذا هم قد خسروا فيه كل دمائهم ، وإذا الحكم آخر الأمر لبني عمومتهم آل « عباس بن عبد المطلب » ،

* * *

فلقد نزل عنها — وهي لا تزال دعوة — « أبو هاشم بن محمد بن علي بن أبي طالب » ، في مرض الموت ، إلى « علي بن عبد الله بن العباس » ، ثم يموت « علي » ويتلقفها ابنه « محمد » .

ثم يموت « محمد » بعد أن يعهد لابنه « إبراهيم » ، ثم يموت « إبراهيم » بعد أن يعهد لأخيه « أبي العباس السفاح » عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس » ، رأس الدولة العباسية ، وأول خلفائها .

وبه « أبي العباس السفاح » كان ميلاد الدولة العباسية ، وعلى يديه تجرع الأمويون ما جرعوه للهاشميين : يسعى إلى استئصالهم ، كما استأصلوا إخوانا لهم من قبل ، تحـــدوه القسوة التي حدت « ابن زياد » ، وهو يتمثل قول « سديف » الشاعر :

لا يغرنك ما ترى من رجال   إن تحت الضلوع داء دويّا

فضع السيف وارفع السوط حتى   لا ترى فوق ظهرها أمويا

****

ابراهيم الابيارى

ميلاد دولة

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٤٢٢٧٧

المطبعة النموذجية
١ سكة الساورى بالحلمية الجديدة

المتربصين بهم الدوائر من الهاشميين أن يطوّحوا بهم بعيدا عن الملك ليثبوا هم إليه .

وهكذا كان مغيب تلك الدولة الأموية .

* * *

ولكنى فى هذا الكتاب « ميلاد دولة » غير محدثك عن هذا الخلاف القديم فى كثير أو قليل ، وغير محدثك عن الخلاف الذى كان بين ملوك بنى أمية ، ولا عن كيد بعضهم لبعض ، ولا عن خروجهم عن أسلوب الدين وأسلوب الدنيا .

ولكن حديثى إليك فى هذا الكتاب الذى بين يديك :

عن تلك الفتنة الأولى الهينة الصغيرة التى ولى فيها الخليفة الثانى « عمر بن الخطاب » مقتولا ، وما صحبها من أسباب ، وما كان لها من أثر .

ثم عن تلك الفتنة الثانية التى ولّى فيها الخليفة الثالث « عثمان ابن عفان » مقتولا ، كيف تهيأت ، وعما أيقظت ، وعما خلفت .

ثم عن تلك الفتنة الثالثة التى ولى فيها الخليفة « الرابع على بن أبى طالب » مقتولا ، وما فوّتت على الهاشميين وما أعطت للأمويين .

ثم عن تلك الفتنة الرابعة التي ولّى فيها « الحسين بن على » مقتولا ، يتبعه في هذه السبيـــل جملة كبيرة من أهله : وكيف زلزلت على الأمويين ملكهم ، وأيقظت أنصار هذا البيت الكريم على الثأر له ولآله .

ولكن الهاشميين ما كادت . تستوى لهم السبيل إلى الملك حتى فقدوا من يليه منهم ، فإذا هو لبنى عمـــومتهم ، وإذا هم المبتلون بشره ، وإذا الدولة لمن لم يذق شر المسعى .

هذا كله فى عرض يقع بك على مكان العظة ، ويلفتك إلى موطن الخير ، ويكشف لك عن مناحى الشر .

وأنا الحريص على أن يفيد الناس من صفحة انطوت على ما يسوء ، ليكتبوا صفحة لن يكون فيها إلا ما يسر ،

وإنى بعد ذلك عند وعدى أن أسوق أخبار كل دويلة فى كتيب والمعين الله وبه التوفيق ؟

مصر الجـــديده
ديسمبر سنة ١٩٥٩

ابراهيم الابيارى